الباب الأول

نشأة علم الكلام وتطوره

الفصل الأول : مفهوم علم الكلام وحقيقته

الفصل الثاني : عوامل نشأة علم الكلام والفرق

الفصل الثالث : علم الكلام وعلاقته بالعلوم الأخرى

الفصل الرابع : مباحث علم الكلام وفوائده

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مفهوم علم الكلام وحقيقته

يمكن التعرف على حقيقة علم الكلام بوصفه أحد العلوم العربية المتميزة التي تناولت معتقدات وآراء الفرق والمذاهب الإسلامية ، وأنه من أهم مكونات الفلسفة العربية الإسلامية ، وذلك من خلال العديد من المفاهيم التي قدمها الفلاسفة والفقهاء وعلماء الكلام أنفسهم لهذا العلم وشروطه وفائدته ، خاصة وأن هذا العلم جعل من الأحكام الشرعية المتعلقة بالاعتقاديات موضوعاً له ووسيلة للبرهنة والحجاج إلى جانب أدلة العقل والتي وسمت هذا العلم بمسمى علم النظر والاستدلال ، كما سماه أبو حنيفة بعلم الفقه الأكبر وبعلم التوحيد والصفات ، ووافقه التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون على رأيه وسماه بعلم أصول الدين ، وهو المعنى الذي أخذه من تسمية الإمام أبي حنيفة النعمان لهذا العلم بأنه علم أصول الفقه أو الفقه الأكبر .

وهذا المعنى لعلم الكلام هو الذي أشار إليه أبو الحسن الأشعري ت ٣٣٠هـ في كتاب الإبانة عن أصول الديانة ، وكذلك عبد القاهر البغدادي ت ٤٢٩هـ في كتاب أصول الدين ، وكذلك المسمى أو المفهوم الذي قدمه طاش كبرى زاده ت ٩٦٨هـ في مفتاح السعادة عندما ذكر أن علم أصول الدين هو المسمى بعلم الكلام ، ولقد سمي هذا العلم كما ذكر أبو حنيفه وغيره بأنه علم أصول الفقه وهو المعنى الذي وافق عليه رجال الكلام من حيث موضوعه وحقيقته ، لأن أصول الفقه تعنى العلم بالعقائد الدينيه وأحكامها التشريعية الواجبة الاعتقاد والإثبات والإقرار بصحتها ، ولهذا حرص العديد من رجال

الفقه والكلام التأكيد على هذا المعنى في تصنيفاتهم ، مثال ذلك : الطحاوي ت٣٣١هـ في العقيده الطحاوية ، وأبو حامد الغزالي ت ٥٠٥هـ في قواعد العقائد ، ونصير الدين الطوسي ت ٦٧٢هـ في تجريد الاعتقاد ، وأبو المعين النسفي ت ٦٧٥هـ في العقائد النسفية ، وابن تيمية ت ٧٢٨هـ في العقيدة الواسطية ، وعضد الدين الإيجي ت ٧٥٦هـ في العقائد العضدية وغيرها .

ويقر الفلاسفة وكذلك الفقهاء رغم معارضتهم لعلم الكلام بوصفه علم الجدل والحجاج وعلم اختلاف المذاهب والفرق ، بأن علم الكلام من أهم العلوم الإسلامية التي ظهرت نتيجة الحاجة إليه خاصة بعد اتساع الدولة الإسلامية ودخول العديد من أصحاب المعتقدات الوثنية وأصحاب الديانات السماوية السابقة على الإسلام وكثرة التساؤلات في حقائق الشرع ، فكان من الضروري ظهور علم إسلامي يواجه هذه الادعاءات والتساؤلات التي أثارها أصحاب هذه المعتقدات حول حقيقة الألوهية والصفات ، وحقيقة الإيمان ، وكذلك حقيقة النبوّة والوحي والرسالات .

وسوف نلاحظ الاهتمام الكبير من جانب أصحاب الفرق والمذاهب وكذلك الفقهاء والفلاسفة ، بتقديم تعريف لهذا العلم من خلال موضوعه ومنهجه وغايته ، مع الإجماع على أن دور هذا العلم لا يقتصر على مهمة الدفاع عن المعتقدات الدينية وإثبات صحتها بالبراهين العقلية ، بل أن له أهدافا تتجاوز ذلك ، وهي أهداف معرفية وسياسية واجتماعية أيضا .

أولا : مفهوم علم الكلام عند الفقهاء

كان علم الكلام عند الفقهاء يعني العلم بالأصول ، أي أصول الدين وأصول الفقه ، ورغم اعترافهم بأهمية هذا العلم ودوره في نشر الإسلام وإثبات التوحيد إلا أنهم ذموا هذا العلم وأصحابه لسبب وحيد هو اعتماد علماء الكلام على التأويل وإعطاء العقل دورا أكبر فى فهم النص وتأويل الشرع ، ويعتبر تعريف الإمام أبي حنيفة النعمان ت ١٥٠هـ أول تعريف لعلم الكلام يتناول موضوع

هذا العلم فهو عنده : علم الفقه الأكبر الذي يتناول أصول الدين الاعتقادية دون العملية أو الفروعية ، ومعنى ذلك أن موضوع علم الكلام عند الفقهاء كان محصوراً في العلم بالاعتقاديات والقضايا والأحكام والدفاع عنها وإثباتها بالمنطق .

ورغم ذلك فقد أقبل البعض من فقهاء السلف المتنورين والفقهاء الذين استخدموا القياس العقلي في استباط الأحكام ومنهم على سبيل المثال ابن حزم الأندلسي وكذلك أصحاب الفرق والمذاهب على دراسة الفلسفة والمنطق وقراءة ما كتبه فلاسفة اليونان في مختلف فروع المعرفة العقلية ، على اعتبار أن المنطق والفلسفة من أهم مكونات هذا العلم أي علم الكلام ، ودليل اهتمام الفقهاء بهذا العلم أن الإمام أبي حنيفة قد وضع علم الكلام في مكانة أعلى من أي علم ديني آخر مثل الفقه وغيره وفي ذلك يقول : « اعلم أن الفقه في أصول الدين أفضل من الفقه في فروع الأحكام ، والفقه هو معرفة النفس وما يجوز لها من الاعتقاديات والعمليات وما يجب عليها ، وما يتعلق منها بالاعتقاديات هو الفقه الأكبر أي علم الكلام ، وما يتعلق بالعمليات فقط فهو الفقه .

ورغم احترام الإمام أبي حنيفة لعلم الكلام والاهتمام به ، فقد عاب على المتكلمين أسلوبهم الجدلي واستخدامهم التأويل في غير موضعه ، ولهذا نهى أبو حنيفة ابنه حماد عن الاشتغال بعلم الكلام ، وعندما احتج ابنه عليه بقوله : « رأيتك وأنت تتكلم فما بالك تنهاني؟» ، فقال أبو حنيفه له : « يا بني كنا نتكلم وكل واحد منا كأن على رأسه الطير مخافة أن يزل صاحبه ، وأنتم اليوم تتكلمون وكل واحد يريد أن يزل صاحبه ، ومن أراد أن يزل صاحبه كفر قبل أن يكفر صاحبه» ، وهذا الرأي يوضح بجلاء علة كراهة أبي حنيفة وسائر الفقهاء لجدال المتكلمين والغاية من علمهم وجدلهم ، وبالتالي فإن علة التحريم عندهم لا ترجع إلى طبيعة علم الكلام ذاته ، بل ترجع إلى سوء استخدام علماء الكلام للجدل والذين جعلوا الانتصار على الخصم غاية قصوى

لهم وليس الوصول إلى الحقيقة وإثباتها ، وبالتالي يقود جدالهم إلى كثير من الخلافات ، وتكفير بعضهم بعضا ، ثم يؤدي بدوره إلى بذر بذور الخلاف والفتنة والفرقة بين جماعة المؤمنين .

ثانيا : مفهوم علم الكلام عند الفلاسفة

كان علم الكلام بوصفه أحد العلوم العقلية الخاصة بعلم دراسة المذاهب والفرق عند الفلاسفة يعني علم الجدل والحوار الذي يقوم على منهج العقل في الاستدلال والتأويل والتفسير والفهم ، وأنه العلم المهتم بفلسفة الدين والتوحيد ، لأنه يقوم على استخدام أدلة العقل في البرهنة على حقائق الشرع وأحكامه ، كما أنهم اتفقوا على مفهوم عام له هو : علم تصحيح وتوضيح الحقائق والعقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، وكان المعلم الثاني أبو نصر الفارابي ت٣٣٩هـ أول الفلاسفة الذين قدموا التعريفات لعلم الكلام حين قال : « إن علم الكلام هو صناعة » أي علم وفن معا ، فهو علم يقتدر به الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل ، ولا شك أن هذا المفهوم يعكس حقيقة علم الكلام ودوره ووظيفته الأساسية وهي الدفاع عن الدين وإثبات حقيقته بأدلة العقل والنقل معاً ، كما يدل هذا المفهوم على اتفاق الفلاسفة ورجال الكلام حول المنهج المناسب لهذا العلم والغاية منه ، وأن حقيقة هذا العلم في وظيفته وغايته نشر الدين الصحيح والرد على المخالفين للعقيدة ، وأن هذا العلم في حقيقته علم عقلي يعتمد على المنطق والحجة والدليل سبيلاً للمعرفة وإثبات اليقين .

ثم جاء بعد الفارابي من يؤيد هذا الرأي مثل أبي حيان التوحيدي ت٤٠٠هـ والذي يجمع في فكره بين الفلسفة وعلم الكلام ويعبرعن الفكر الاعتزالي في هذه الفترة ، وقدم التوحيدي مقابلة بين علم الكلام وعلم الفقه فقال : « إن الفقه دائر بين الحلال والحرام ، وبين اعتبار العلل في القضايا والأحكام ، وأما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار في أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل

في التحسين والتقبيح ، والإحالة والتصحيح ، وبابه مجاور لباب الفقه ، والكلام بينهما مشترك وإن كان بينهما انفصال وتباين» .

وفي منتصف القرن الخامس الهجري جاء حجة الإسلام الإمام أبو حامد ابن محمد الغزالي ت ٥٠٥هـ وقدم مفهوماً واضحاً لعلم الكلام وذلك في كتابه المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال فقال : «علم الكلام هو علم إثبات العقيدة الدينية بالأدلة والبراهين العقلية ، وبه يستكمل المؤمن نوران ، نور العقل ونور القلب ، وزوال الشكوك والوساوس»، ويعتبر هذا التعريف من التعريفات الجامعة لعلم الكلام لأنه يشتمل على الموضوع والمنهج والغاية منه ، على الرغم من أن الغاية التي حددها الغزالي من هذا العلم غاية ذاتية وباطنية وليست عملية أو منطقية .

ونلاحظ أن الإمام الغزالي قد حدد طبيعة ووظيفة هذا العلم في العديد من المؤلفات مثل المنقذ من الضلال ، وكتاب الإحياء في علوم الدين ، وكتاب قواعد العقائد ، والاقتصاد في الاعتقاد ، . ففي كتاب الإحياء تحت باب العلم ذكر الغزالي أن الناس قد اختلفوا في العلم الذي به يدرك التوحيد وإثبات ذات الله تعالى وصفاته ، وأن مقصود ذلك العلم هو الدفاع عن العقيدة ودفع الشبه المثارة حولها ، ومعنى ذلك أن الغزالي قد حرص على بيان مهمة علم الكلام واختصارها في حماية العقيدة والدفاع عنها ، وفي كتاب المنقذ من الضلال أضاف الغزالي أبعاداً أخرى لوظيفة علم الكلام فبعد أن حصرها في حفظ العقيدة على طريقة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة ، جعلها التوضيح والتفهيم والتصحيح للمفاهيم والحقائق لعلماء الكلام أنفسهم والذين سماهم الغزالي بأهل البدعة ، فأهل البدعة عنده هم رجال الكلام والخارجين عن مبادئ السنة والسلف ، وعلة ذلك عنده أنه عندما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه تشوق المتكلمون إلى مجاوزة مهمة الدفاع عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وحقائقها

وأحكامها ، لكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلاف الخلق ، ومعنى ذلك بحسب رأي الغزالي أن علم الكلام لم يحقق الغاية المرجوة منه على أيدي رجاله وهي إثبات التوحيد والوصول إلى غاية اليقين .

ورغم ذلك كان إجماع علماء الكلام والفلاسفة على أهمية العقل في الاستدلال والفهم والتوضيح ، وكذلك تقوية الإيمان والاستدلال على حقيقة الشرع والإجماع على أن الإيمان سابق على الاستدلال العقلي ، وأن إيمان المستدل أقوى من إيمان المقلد لأنه قائم على إيراد الحجج المؤيدة له .

ثالثا : مفهوم علم الكلام عند أصحابه من المتكلمين

لقد حصر رجال الكلام علمهم في الرد على شبه المخالفين والمبتدعة والمنحرفين في الرأي والمعتقد والدفاع عن الدين وتأييد ما جاء به الشرع بصحيح العقل ، كما اتفقوا على أن هذا العلم متوجه إلى إثبات العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والشرعية ، ولذا ألف علماء الكلام كتبا مخصوصة للرد على شبهات واتهامات المخالفين لهم سواء من الفلاسفة والفقهاء أو من أصحاب المذاهب المخالفة لهم والذين يذمون علمهم ، فكتب الأشعري كتابا بعنوان : استحسان الخوض في علم الكلام .

وفي القرن الثامن الهجري قدم عضد الدين الإيجي ت ٧٥٦هـ في كتاب المواقف تعريفاً لعلم الكلام من خلال غاية هذا العلم فقال : « هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه » ، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ ، ومعنى ذلك أن المتكلم لابد أن يبدأ علمه بالمسلمات الاعتقادية مثل واحدية الإله ونبوّة محمد ﷺ ، والإيمان بالمعجزات والبعث والحساب وغيرها من الأصول الاعتقادية الثابتة التي لا يقدح في صدقها مكابر ، وأن مهمة هذا العلم وغايته محصورة في التصديق بهذه العقائد والدفاع عنها وإثباتها بأدلة العقل والنقل والرد على المخالفين لها ودحض شبهاتهم .

وذكر الإيجي في كتاب المواقف علة تسمية علم الكلام بهذا الاسم فقال : « إنما سمي بعلم الكلام إما لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة أي أنه آلة للعلوم ومدخل لها ويعتمد على أدلة العقل كالفلاسفة ، وإما لأن أبوابه عنونت أولاً بعبارة الكلام في كذا ، أولأن مسألة الكلام الإلهي وخلق القرآن كانت أشهر أجزائه حتى كثر فيه التشاجر والسفك ، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات مع الخصوم .

وقد استحسن البعض تعليلات الإيجي في تسمية علم الكلام واعتباره أن مسألة الكلام الإلهي وخلق القرآن من أهم المسائل التي تعرض لها العلم والتي كانت سبباً في تسميته بهذا الاسم ، وخاصة أن هذه المسألة من المسائل التي اختلف عليها الفقهاء مع رجال الكلام وخاصة المعتزلة في زمن الخليفة المأمون ، حيث وصل الأمر إلى حد سفك الدماء واستعراض الفقهاء من الحنابلة من جانب زعماء المعتزلة حول مسألة كلام الله هل هو حادث أم قديم ، ولذا انتقلت التسمية إلى علم الكلام فسمي بها .

وفي أواخر القرن الثامن الهجري قدم سعد الدين التفتازاني صاحب شرح العقائد النسفية ت ٧٨٦هـ تعريفا لعلم الكلام فقال : « هو العلم المتعلق بالأحكام الأصلية الاعتقادية ، وأنه علم التوحيد والصفات ، لأنه العلم بأصول الدين ، وهذه الأصول هي الشرائع والأحكام الأصلية الاعتقادية ، وأن وسيلة ذلك العلم هي النظر والاستدلال » . وهذا التعريف يهتم بموضوع العلم ومنهجه فهو علم النظر والاستدلال ، كما يقصر مهمة هذا العلم في مجرد العلم بالعقائد والإيمان بها كما هي ، ومع ذلك فقد جعله التفتازاني على رأس العلوم الدينية التي تعالج الأصول الاعتقادية ، وهو ما جاء في شرحه للعقائد النسفية حين قال : « اعلم أن الأحكام الشرعية منها ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية وعملية ، ومنها ما يتعلق بالاعتقاد وتسمى أصلية واعتقادية ، والعلم المتعلق بالأولى يسمى علم الشرائع والأحكام ، وبالثانية علم التوحيد والصفات أي علم الكلام » .

وفي القرن التاسع الهجري ظهر اهتمام عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ بعلم الكلام ورجاله وتحديد موضوعه وغايته فقال في المقدمة : علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على شبه المبتدعة المنحرفين في الاعتقاد عن مذاهب السلف وعقائد أهل السنة ، كما ذهب ابن خلدون إلى بيان سبب تسمية هذا العلم بعلم الكلام فقال : « إن سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النفسي في القرآن وأنه مخلوق أو غير مخلوق» ، ولذا كان الكلام الإلهي سببا في ظهور هذا العلم وتسميته بهذا الاسم .

ولا شك أن هذا المفهوم يتوافق إلى حد بعيد مع رأي الغزالي ومن سبقه من الأشاعرة ، الذين قصروا مهمة علم الكلام في الدفاع عن العقيدة وإثبات التوحيد ، وأن ذلك لا يكون إلاّ بأدلة العقل ، وأن مهمة رجل الكلام الإلمام بحقائق الإيمان وسائر العقائد لأن ذلك من الواجبات ، كما اهتم فقهاء الأشاعرة على العموم ببيان مهمة هذا العلم وهي إثبات التوحيد ، وفي هذا المعنى جاءت تآليف أبو منصور الماتريدي ت ٣٣٣هـ في كتاب التوحيد ، وكذلك في كتاب القاسمي : دلائل التوحيد ، وكتاب حسين والي : التوحيد ، وكتاب المقريظي : تجريد التوحيد ، وفي هذا المجال أيضا قدم الإمام محمد عبده كتاب رسالة التوحيد ، ومعنى ذلك أن الأشاعرة قدامى ومحدثين جعلوا مهمة علم الكلام الرد على مخالفيهم من خلال إثبات التوحيد على رأي السنة والسلف ، وهذا الرأي يؤكده البيروني ت ٣٥٧هـ حين قال : «التوحيد هو الصفة التي عرف بها الإسلام من بين سائر الأديان ، فلا غرو أن يتخذ علم العقائد الإسلامية هذه السمة الغالبة أو الهدف المقصود من دراسة العقائد اسماً له» .

وفي القرن الثاني عشر الهجري حاول التهانوي ت١١٥٧هـ في كتابه كشاف اصطلاحات الفنون ، تقديم العديد من المفاهيم لعلم الكلام والتي اتفق عليها

أصحاب المذاهب والفرق فقال : «علم الكلام هو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشُّبه ، وهو نفس تعريف الإيجي لعلم الكلام» . وقد أضاف التهانوي لهذا المفهوم ضرورة أن يعتمد المتكلم على قدرته في فهم النصوص وأحكامها وما تشتمل عليه من عقائد وقضايا يجب الاستدلال على صحتها بأدلة العقل ، وليس معنى ذلك كما يقول التهانوي وجوب الاعتماد على العقل وحده بل يجب أخذ العقائد من الشرع ليعتد بها ، وأهم هذه العقائد والأصول هو أصل التوحيد ثم النبوّات والإيمان والمعاد .

ولم يكن التهانوي وحده الذي أشار إلى مفهوم وموضوع علم الكلام وطريقة البحث فيه ، ولكن علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة على الخصوص قد اهتموا ببيان ذلك ، حيث أكد سيف الدين الآمدي على أن الإمامة من أهم موضوعات علم الكلام ، أما ابن الهمام في المسايرة فيرى أن مبحث الإمامة ليس من موضوعات علم الكلام ، وذلك ردا على الشيعة التي اعتبرت الإمامة أصل من أصول الاعتقاد ، ومن ثَمَّ اختلف البعض حول اعتبار الإمامة من موضوعات علم الكلام ، كما حدد علماء الكلام مقاصد العلم وغايته في الدفاع عن الدين والتقريب بين المذاهب وإثبات أن التقريب بينها وفهمها أمر ممكن وضروري وليس بالمستحيل .

* * *

obeikandl.com

الفصل الثاني

عوامل نشأة علم الكلام والفرق

لقد أثبتت الوقائع السياسية والتعددية المذهبية في الفكر العربي السبق الزمنى لعلم الكلام في الظهور والتأثير قبل باقي العلوم التي أفرزتها العقلية العربية سواء علوم الدين أو علوم اللغة ، والتمهيد لقبول الفكر الفلسفي والصوفي ، واستطاع الفلاسفة والفقهاء وعلماء الكلام من أصحاب المذاهب والفرق تحديد ملامح هذا العلم كعلم مستقل بموضوعه وغايته ورجاله ومنهجه ، فقد نشأ علم الكلام حين ظهرت بوادره الأولى مع ظهور الإسلام وفي أواخر عهد الصحابة وقبل عصر ازدهار الفلسفة وعصر الترجمة بحوالي قرنين من الزمان ، وكان لعلم الكلام أثره الواضح في البيئة العقلية فور ظهوره ، كعلم يجمع في طبيعته ومنهجه بين الفلسفة والشرع ، ولهذا ظهر علم الكلام مثل باقي العلوم الإسلامية الشرعية التي ظهرت مع ظهور الإسلام في الصدر الأول ومع تدوين العلوم ، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن عوامل نشأة الفلسفة هي نفسها عوامل ظهور علم الكلام الإسلامي ، كما دفع البعض الآخر إلى اعتبار علم الكلام والفلسفة كلاهما علم واحد على اعتبار أن علم الكلام هو المعبر عن حقيقة الفكر العربي الذي لم يتأثر بفلسفة اليونان بقدر تأثر الفلاسفة به .

ولقد تعاونت عوامل عديدة بعضها داخلية وأخرى خارجية في ظهور علم الكلام ، ويمكن تقسيم هذه العوامل والأسباب التي أدت إلى قيام علم الكلام إلى أسباب عامة إنسانية ، وهي في الأصل جملة الأسباب الطبيعية للخلاف بين البشر مثل التنافس والتغير والتميز والاختلاف والميل الطبيعى لتصديق آراء

الآخرين ولكل ما يسمع أو يقال ، والاختلاف الناتج عن غياب المعرفة والوعي والبعد عن العقلانية والموضوعية ، والاعتقاد الخاطئ في صحة آراء أصحاب المذاهب والفرق وأنهم معصومون عن الخطأ ، وأسباب أخرى تتعلق بالإسلام والقرآن وطبيعة العقل العربي وهي العوامل الداخلية المتمثلة في ذاتية المذهب والغرض منه ، ومثالها الولاء والاعتقاد الخاطئ في صحة مبادئ وأصول المذهب ، وأن كل ماعداه خاطئ ومخالف لحقيقة الشرع ، وعوامل أخرى تتعلق بالترجمات ، وأحوال الشعوب المجاورة وحضارة الأمم السابقة وما نتج عنها من أفكار ومناهج في التفكير والتطبيق وهي العوامل الخارجية ، ومن ثَمَّ يقصد بالأسباب الداخلية العوامل الخاصة بالمسلمين أنفسهم وعوامل فهم القرآن وتأويله ، أما الأسباب الخارجية فيقصد بها العوامل الخارجة عن الإسلام نفسه كالعوامل البيئية والطبيعية والسياسية ودخول أهل الثقافات والمعتقدات السابقة على الإسلام ، ودور اليهود والنصارى في إثارة الفتن والشائعات ومحاولاتهم الدائبة للنيل من الإسلام ومجادلة علماء الكلام لهم .

أولا : الأسباب العامة لظهور المذاهب والفرق الكلامية

١- تعتبر الأسباب الطبيعية والإنسانية الخاصة بالاختلاف الطبيعي بين البشر لاختلاف أفهامهم ورغباتهم ، وكذلك الميل الطبيعي للمعرفة واكتشاف المجهول وتصديقه ، ومحاولة الوصول إلى الحقائق وإدراك أسباب الظواهر وعللها من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور علم الكلام بوصفه علم المذاهب والفرق الإسلامية ، وذلك لأن الاختلاف بين البشر في الفكر والرأي والمعتقد سنة كونية ، إلى جانب دور المجوس واليهود والنصارى في إثارة الفتن والتساؤلات التي أثارها علماؤهم ضد الإسلام ، وهذا الدور يتمثل في رفضهم عبادة الله الواحد ، وتعجب البعض أيعبد إلاّ واحداً بعد أن كان يختار إلهه حسب هواه ، وفي هذا الوقت مارس اليهود وظيفتهم في إثارة الفتن ، فكثر المنافقون والحاقدون على الإسلام كما

أثاروا الفتن بين الأوس والخزرج من سكان يثرب ، واستمروا في تأليب قبائل العرب على الإسلام وبدأ فريق منهم يتعمد دس الأحاديث الموضوعة على السُّنة ، وإثارة التساؤلات في أصول الاعتقاد ، واتهام الصحابة لإشعال الفتن والخلافات .

وقد تولى عبد الله بن سبأ اليهودي قيادة أول حركة من حركات الإثارة للفتن والثورة ، وجعل التشيع لعلي بن أبي طالب محورا لآرائه وأفكاره ، كما تعمد إثارة الأقاويل والشائعات على أمير المؤمنين عثمان بن عفان وباقي الصحابة ، وأثار هو وأتباعه من السبئية بذور الفتنة ورددوا الكثير من الآراء المخالفة لحقيقة الدين والتوحيد فقال بنبوة علي بن أبي طالب ، ثم قال بألوهيته ورجعته ، فلما قتل علي بن أبي طالب زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن عليًّا وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة علي وأن عليًّا صعد إلى السماء كما صعد عيسى عليه السلام ، وأنه سينزل إلى الدنيا ، واستغل ابن سبأ وجماعته دخول بعض فرق وجماعات من المجوس واليهود والنصارى في الإسلام بآرائها المخالفة للدين : كالعيسوية والشاذكانية ، وحاول إقناعهم بآرائه المخالفة لأصول الدين ، فهؤلاء على الرغم أنهم أقروا بالشهادة والتوحيد وأن محمداً رسول الله فإنهم أنكروا عمومية رسالته ، وقالوا إنه مبعوث للعرب فقط دون العامة وكثير منهم قالوا بالتشبيه والتجسيم وبالحلول والتناسخ .

٢- ظهور بعض الحركات الفردية التي تدعو إلى آراء مخالفة ومنحرفة عن الدين ، وأشهر هذه الحركات الخرسانية أتباع أبو مسلم الخراساني ، والشكاك أتباع صالح بن عبد القدوس ، والدهرية ، والمقنعية ، والزنادقة ، وقد كان وراء هذه الحركات العديد من الآراء الفارسية والهندية واليونانية ومعتقدات المانوية والمزدكية والزرادشتية ، والتي لم يستطيع المجوس التخلص منها حتى بعد دخولهم الإسلام ، وهذه الحركات والدعوات ظهرت خاصة بعد مقتل أبي مسلم الخراساني وقادها ثلاثة من الزنادقة هم

سينباذ وإسحق التركي وأستاذ سيس ، وهؤلاء قد رددوا آراء زرادشت ت٥٨٣ ق . م . والذي قال بتعدد الآلهة وثبات قوانين الطبيعة والصراع الدائم بين الخير والشر وبين آلهة النور والظلمة ، وأن العقل هو النور الذي يضيء للإنسان الطريق ، وأن الجسم هو الظلمة التي يحيا فيها الإنسان وتدفعه إلى الشر والصراع ، وأن العقل الإلهي هو مصدر الوجود ومصدر كل معرفة .

٣- ظهور مذاهب المشبهة والمجسمة ، والذين رددوا معتقدات يونانية فارسية وهندية قديمة تشبه الإله بالإنسان ، وقالت بعض هذه المذاهب بالحلول والتناسخ ، وكان هدفهم الأساسي هو إفساد العقول والبعد عن التوحيد ، فقام رجال الدين وعلمائه من الفقهاء والمتكلمين بالرد عليهم وإثبات أخطائهم وفساد أقوالهم ، فنشأ علم الكلام للرد عليهم وإثبات التوحيد والتنزيه لله تعالى بأدلة العقل والنقل .

٤- تعدد الآراء والتفاسير واختلاف المفسرين والفقهاء وأصحاب الفرق حول بعض النصوص وخاصة آيات التشبيه والتجسيم ، وآيات الجبر والاختيار والمشيئة والمحكم والمتشابه . كما في قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ** ﴾ (الكهف:٢٣-٢٤) . وقوله تعالى : ﴿ **وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ (الكهف:٢٩) . فالتعارض الظاهري أو اللفظي يوحي في الآية الأولى بربط مشيئة الفرد بمشيئة الله وأن ليس للفرد مشيئة خاصة به ، وأن الإنسان لا يفعل بمحض إرادته وإنما يفعل بمحض إرادة الله ، والآية الثانية تظهرنا على أن للإنسان مشيئة خاصة مستقلة وأنه حر فيما يختار لنفسه من الكفر والإيمان ، وفي حين أصر البعض على تأويل الآيات لفهم المعنى الحقيقي وعدم الوقوف عند ظواهر النصوص ، أصر البعض الآخر على التمسك بظاهر النص خوفاً من أن يأتي في القرآن ما ليس منه ، والفريق الآخر

أوجب تأويل آيات اليد والوجه والعرش والكرسى والمجيء وغيرها خوفاً من الوقوع في التشبيه والتجسيم .

وهذا الموقف جعل ابن خلدون يرجع سبب نشأة علم الكلام إلى هذه الاختلافات فقال : إن الخلاف في تفاصيل العقائد كان أكثرها في الآيات المتشابهة والتي حدث فيها الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة على النقل فحدث بذلك علم الكلام ، وهكذا كان الخلاف بين أصحاب النص وأصحاب التأويل حول المتشابهات من أهم العوامل في نشأة علم الكلام الإسلامي وهكذا انقسمت الآراء والمذاهب ، وكان على رأسهم الفريق الذي يميل إلى التأويل والاجتهاد والرأي ، من أجل الفهم والبعد عن التشبيه ، واعتبر التأويل وسيلة لإقناع المخالفين بصدق مذهبهم وشرعيته ، فكثرت التأويلات وتعددت الآراء في مسألة الصفات ، وفي مسألة الإمامة ، وفي مسألة القدر ، خاصة في أواخر عهد الصحابة حيث بدأوا مرحلة التأويل للنصوص القرآنية المتعلقة بالذات والصفات ، فتعددت الآراء في القدرة والاستطاعة ، فنفي الجهم ابن صفوان أن يكون لله تعالى صفة ، وحاول أهل السنة وأصحاب النص الرد على الجهمية ، والقدرية والمعتزلة ، وهذه كانت بداية علم الكلام الأولى وظهور الفرق الإسلامية أواخر القرن الأول الهجري .

٥- الرغبة في الإستئثار بالسلطة ، كان من أهم العوامل السياسية التي أثارت القلاقل والخلافات في الدولة الإسلامية الأولى ، وكذلك الخلاف حول الإمامة وافتراق الآراء وتعددها بين الفرق حول هذه المسألة ، فكان كل مذهب يسعى جاهدا لإثبات أنه المذهب الحق المتوافق مع النص والشرع وأن المذاهب الأخرى هي المخالفة لحقيقة الشرع ، ومن أجل ذلك أقام الخوارج دولا خارجية وأقام الشيعة دولا شيعية ، محاولين إثبات أنهم الأحق بقيادة الأمة الإسلامية وأنهم دعاة الحق والإيمان الصحيح .

٦- تعدد الثقافات والديانات في عصر ظهور الإسلام وتباينها سواء كانت ديانات سماوية أو وضعية من مواضعات البشر وحكمائهم ، ومخالطة المسلمين لأهل هذه المعتقدات ، كان سببا وراء ظهور علماء الكلام والفرق .

٧- تمكن العادات والمعتقدات الخاطئة والجهل والفقر والعصبية القبلية في نفوس العرب والشعوب المجاورة لهم ، كان سببا وراء عدم تمكن الإيمان الحقيقي من قلوب الكثير من جهالهم ، فارتد العديد عن الإسلام بعد أن أسلموا وعادوا إلى معتقداتهم القديمة ، وهؤلاء هم الذين لم يفهموا الدين على حقيقته وساروا وراء أقوال وآراء زعمائهم ، ولم يعملوا عقولهم وفهومهم في آيات القرآن والحديث .

ثانيا : العوامل والأسباب الداخلية لظهور علم الكلام والفرق

ذهب بعض الباحثين في علم الكلام إلى أن العوامل الداخلية التي ساهمت في ظهور علم الكلام ترجع أساساً إلى التحولات الفكرية التي أحدثها القرآن الكريم في معتنقيه ، وما ظهر من اختلافات متباينة في آراء الفرق الإسلامية ، حيث ادعت كل فرقة أنها وحدها بأصولها هي التي تعبر عن حقيقة الإسلام وأن غيرها هي المخالفة ، وقد ترتب على هذه الخلافات وتعدد التأويلات ظهور الفرق وتباين الآراء الناشئة عن تنوع القضايا الخلافية والأطماع السياسية والرغبة في السيطرة والاستئثار بالسلطة ، والذي كان يغذيه الدافع النفسي في الرغبة والولاء والتميز وإثبات الذات ، بالإضافة إلى الرغبة المتولدة لدى رجال الكلام في القيام بدور هام في إثبات التوحيد والدفاع عن أصول الاعتقاد .

(١) القرآن الكريم : لقد ظهر علم الكلام مثل باقي العلوم الشرعية مع ظهور الإسلام في الصدر الأول بعد تدوين العلوم ، وكان السبب الأول لظهوره هو القرآن الكريم الذي أمر بإعمال العقل في جميع آيات الكون ومخلوقاته ، كما أمر بالعلم والمعرفة واليقين ، وأمر بالتوحيد والفهم

لآيات القرآن الحكيم ، وحث على وجوب النظر في آيات الكون والنفس الظاهرة والباطنة ، كما دعا إلى ضرورة التمييز بين الحق والباطل في العقائد والأخلاق ، وكان لتنوع النصوص القرآنية بين الآيات المحكمة التي لا تحتاج إلى جهد في فهمها لأنها واضحة بذاتها وبين تلك الآيات المتشابهة التي وجب تأويلها لفهمها ، وحول تأويل آيات التشبيه والتجسيم انقسم أصحاب الفرق والمذاهب فمنهم من يأخذ بظاهر النص ومنهم من يصر على تأويلها ، مع أن هدف الفريقين واحد وهو إثبات التوحيد والتنزيه لله سبحانه عن المماسة والجهة والحدوث والنظير والجسمية والاستواء واليد والوجه ، وفي هذا المعنى يقرر الدكتور محمد يوسف موسي في كتابه : القرآن والفلسفة : أن القرآن الكريم هو الذي دفع المسلمين إلى التفلسف بمعناه الواسع ، وذلك بما اشتمل عليه من أصول الفلسفة الإلهية والطبيعية .

(٢) الاختلاف في التأويل : وقد ساهم هذا الخلاف حول تأويل الآيات وفهمها في انقسام وتباين الآراء والمواقف بين الفقهاء وعلماء الكلام وانقسامهم إلى فريقين متنازعين ، كما اختلف أصحاب الفرق أنفسهم إلى فريقين حين اختلفوا في مسألة القدرة والاستطاعة ونفي الصفات أو إثباتها ، فقال بالاستطاعة معبد الجهني وغيلان الدمشقي ، والجعد ابن درهم ، وعارضهم عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك وعقبة بن عامر الجهني وغيرهم ، وفي أواخر القرن الأول الهجري ظهر الخلاف حول مسألة الصفات عندما بدأها جهم ابن صفوان ورفض أن يكون لله معه صفة ، فرد عليه أهل السنة والسلف وغيرهم ، وكانت هذه هي بداية علم الكلام ونشأة الفرق الكلامية .

وقد حذر النبي ﷺ بطريقة مباشرة من خطر الاختلاف والتفرق ، لأن الدين عند الله واحد وهو الإسلام ، وعلى ذلك فليس في الإسلام فرق ولا أحزاب

ولا جماعات لأن أصل الاعتقاد واحد وهو التوحيد والوحدة ، ولهذا جاء الأمر الصريح بنفي الفرقة والاختلاف في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ ﴾ (الأنفال:٤٦) وفي الحديث : روى البخاري عن زينب بنت جحش أنها قالت : « استيقظ النبي ﷺ مُحْمِّراً وجهه وهو يقول : لا إله إلاّ الله ويل للعرب من شر قد اقترب » ، وذلك عندما تنبأ باختلاف الأمة وافتراقها إلى فرق ومذاهب .

ومن الثابت أن في عهد الرسول ﷺ وصحابته لم يظهر أي خلاف حقيقي بالمعنى المعروف لكلمة خلاف أو اختلاف ، لأن قوة إيمان الصحابة وحرصهم على أداء العبادات والأركان ووجود النبي ﷺ بينهم جعلهم دائمي السؤال عن كل صغيرة أو كبيرة في أمور الدين ، ولم تصل هذه التساؤلات العديدة في أمور العقائد إلى مرحلة الخلاف أو الاختلاف .

وفي أواخر عهد الصحابة كان ظهور أول صور خلاف في الرأي حول مسألة التأويل للنصوص المتعلقة بالذات والصفات والقدرة والاستطاعة والمحكم والمتشابه ، وأن هذه الخلافات لم تتعد حدود الخلاف في الرأي والاجتهاد ، وانحصرت في مجال الطاعة لأمر الله باستخدام العقل والنظر والاعتبار والفهم والتعليم والجدال بالحسنى ، فكان استخدام العقل ضرورة لفهم النصوص وتعلمها وتعليمها استجابة لأمر الله تعالى في أول سورة أنزلت في الكتاب ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (العلق:١-٥) ، وكذلك لم يتوقف القرآن عند حد الدعوة إلى القراءة وتحصيل المعرفة بل دعا إلى وجوب العلم بجميع فروعه ، ولذا جاء في القرآن أن الله يرفع درجات أهل العلم والمعرفة فقال تعالى : ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ (المجادلة:١١). وقال تعالى : ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾(البقرة:٢٦٩) وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (يونس:١٠١) ، وقال

تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩١).

(٣) الميل الطبيعي إلى المعرفة والفهم والجدل : وكان ذلك استجابة لما ورد في القرآن الكريم من دعوة للجدل بالحسنى مع أهل الكتاب والمخالفين ، وأن الجدل لازم لأنه سبيل الحكمة والمعرفة وإثبات الحقائق ، فقال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ . فكان على علماء الكلام مسئولية تنفيذ ذلك الأمر ومجادلة المخالفين والمعاندين ، وكان ذلك أيضا استجابة لما ورد في القرآن الكريم من دعوة للتفكر والتدبر والتأمل والنظر في النفس والكون والقرآن أيضا ، لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ . فكان علماء الكلام هم أهل الجدل ، وهم أصحاب النظر القائم على دلائل العقل والشرع .

(٤) الحب الشديد للنبى ﷺ وصحابته : لقد حرص الصحابة على الإيمان والطاعة لله وللرسول ومحبة الله ورسوله ، والالتزام بأمر الله بالتفكر والتأمل والاعتبار ، وهذا ما جعلهم شديدي الحرص على إظهار الطاعة والمحبة ومعرفة كل صغيرة وكبيرة ، ومحاولة الجمع بين دقائق الأمور المشاهدة من جهة وأمور الغيب من جهة أخرى استجابة للأمر الإلهي بالتفكر في الكون والنفس ، ولأن مقام العلم وأصحابه عند الله عظيم .

(٥) شمولية القرآن لمختلف قضايا الفكر والسلوك الإنساني : فكان شموله لآيات العقائد ومختلف الديانات ، وشموله لكافة الانحرافات التي أحدثها اليهود والنصارى وأصحاب العقائد الباطلة كالمجوس وغيرهم ،

والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين ، وإقرار العقائد على اختلاف أنواعها والحجج الداحضة لها ، كان لذلك أثره في إثارة العقول والتساؤلات في هذه العقائد المخالفة ، وقد ذكرها الحق في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (الحج:١٧) ، كما كانت هذه المعتقدات سببا في كثرة التأويلات ، وخاصة للمتشابه من الآيات والتي سميت آيات التشبيه والتجسيم ، وهي الآيات المتعلقة بالجلوس والحركة والمجيء والعرش والكرسي واليد وغيرها ، حيث رفض أهل السلف التأويل لهذه الآيات وقالوا اقرأوها كما جاءت ، فكانت هذه الآيات سبباً في إثارة العقول وتعدد الآراء في فهمها ، فالبعض أخذها على ظاهرها ، والبعض الآخر أصر على تأويلها خوفاً من الوقوع في التشبيه والتجسيم ، كما كثرت التساؤلات في عهد الرسول والصحابة عن هذه المعتقدات وعلاقتها بالإيمان والكفر والجنة والنار وحرية الإنسان ويوم الساعة والحساب وغيرها ، فظهرت جماعة من الصحابة والسلف تحذر من الاجتهاد أو استخدام العقل في مجال العقائد ، على اعتبار أن إدخال العقل في فهم النصوص هو الذي أدى إلى الاختلاف وتعدد الآراء والمذاهب والفرق .

(٦) استمرار روح العصبية العربية والانتماء القبلي : ذلك التعصب الذي نشأ من التمسك بالعادات والمعتقدات القديمة قبل الإسلام ، والاعتقاد الخاطئ في صحة آراء السابقين وموافقتهم ، فحيث كان التعصب الشديد كان الخلاف الشديد الذي يزكيه روح القومية والعنصرية والجهل وغياب الثقافة وضعف الإيمان ، وقد وقع ذلك في عصر النبوة رغم تحذير النبي من هذه الفُرْقَة والعصبية ، وكثر أتباع العصبية والجهل ، بعد وفة النبي ، فكان من الضروري أن يتصدى لهم علماء الكلام بحجج العقل والنقل لتصحيح معتقداتهم الخاطئة .

(٧) إدخال المنهج الفلسفي في مجال العلوم الشرعية : نتيجة التقارب الثقافي بين العرب وبين أهل الثقافات والحضارات القديمة ، فاستخدم علماء الكلام منطق الفلاسفة في مسائل الاعتقاد كالذات والصفات والجبر والاختيار والسمع والعقل والإمامة ، فظهر علم الكلام كواحد من العلوم الشرعية المتصفة بصفة عقلية ، واستخدموا ذلك العلم في الرد على الفرق المخالفة مستخدمين الحجج الفلسفية ، كما استخدموه أيضا في الرد على المخالفين من الثنوية والمجوس ، فجاء الرد عليهم قاطعاً مقنعا بأدلة العقل والمنطق والبرهان .

(٨) التنازع على السلطة والخلافة : فهذا النزاع كان من أهم أسباب ظهور علم الكلام ، حيث تعددت مظاهر الخلاف في عصر الصحابة عقب وفاة الرسول ﷺ مباشرة ، وكثرت تساؤلات المهاجرين والأنصار من أحق بالخلافة وكيف تتم الخلافة ولمن تكون وما هي شروطها وهل هي من الواجبات الشرعية أم لا ، وقال المهاجرون نحن أسبق إلى الإسلام ، وقال الأنصار نحن نصرنا فنحن أحق بالولاية والخلافة ، ثم انتقل هذا الخلاف إلى الفرق الكلامية وخاصة الشيعة والخوارج وأهل السنة الذين استشهدوا بمواقف أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وكبار الصحابة ، ثم تتطور الخلاف بينهم في عصر عثمان بن عفان ، وهكذا كانت الخلافات السياسية داخل الدولة الإسلامية وتعدد وتوزع الميول والمذاهب واختلاف الفرق إلى درجة الاقتتال بينهم وراء الرغبة في الاستئثار بالسلطة والحكم .

(٩) البحث في مسائل الغيب : كان التعرض للمسائل الغامضة المتعلقة بالغيبيات والتي تفوق قدرات العقل ، مثل مسائل الجنة والنار والبعث وعالم الآخرة والحساب ، وكذلك مسائل الرؤية والكلام الإلهي وخلق القرآن ، وهي المسألة التي سُمِيَ علم الكلام بها ، فكان الخلاف بين

الفرق والمذاهب : هل الكلام الإلهي حادث أم قديم فقال أهل السنة والسلف والأشاعرة أنه قديم قدم الذات لأنه كلام نفسي في ذات الله القديمة ، أما المعتزلة فقالوا عكس ذلك بأنه حادث مخلوق لله تعالى إن شاء يغيره وإن شاء يثبته وذلك لأن كلام الله حادث مخلوق ، فظهر الخلاف بين المتكلمين ، كما ظهر الخلاف بين الفلاسفة حيث كان الاختلاف والانحراف نتيجة إدخال الأقيسة المنطقية والدراسات العقلية في مجال العقائد الدينية ، وقياس الغائب على الشاهد كلها عوامل أدت إلى ظهور علم الكلام وتطوره

(١٠) إدخال القصص والحكايات في عهد عثمان وعليٍّ : حيث كانت الروايات والقصص تروى على شكل حكايات وكرامات لوصف فضائل الصحابة والحكماء الأقدمين ، وكان بعضها من الإسرائيليات والديانات السابقة التي دخلها التحريف وكان يرددها أتباع ابن سبأ وغيرهم ، وكان بعضها الآخر من القصص التي وردت كأمثلة على أحوال الأمم السابقة أو أحوال الأنبياء في القرآن الكريم ، فكانت هذه القصص ، من أبرز العوامل التي أثارت العقول ودفعت العلماء والفقهاء لمزيد من التساؤل عن مكانة كبار الصحابة ، فاضطر علماء الكلام والفلاسفة الرد على هذه الاستفسارات ، ومن ثَمَّ كثرت الاختلافات والمواقف المتباينة في قضايا الإيمان والتوحيد والصفات والإمامة وغيرها .

(١١) الاختلاف السياسي بين الشيعة والخوارج : حيث كان اختلافهم على من يكون الإمام ، وما هي شروط الإمام وصفاته المؤهلة له وما هي الكيفية التي تتم بها اختيار الإمام ، فكان لهذا الاختلاف المبكر أثره المباشر في توسيع دائرة الرأي والخلاف فيما بعد بين الفرق والمذاهب وخاصة بين الشيعة والخوارج ، فقد اختلفوا حول مسألة النص والتعيين

وشروط الإمامة وما تفرع عنها من قضايا ، مثل صفات الإمام ، ونصب الإمام هل هو على الوجوب أم على الجواز ، وهل الإمامة من أصول الدين أم لا ، وهل تكون الإمامة بالنص أم بالتعيين والاختيار ، وهل يكون الحكم فيها بمعيار المصلحة والرأي أم بالشرع ، وفي هذه المسائل تنوعت الآراء واختلفت وكثر الجدل فيها ، وكان كل فريق يستدل على رأيه بأدلة من الشرع أحيانا وبأدلة من العقل أحيانا أخرى، ولم يكن الخلاف سياسيا فقط بينهم ، ولم يقتصر الخلاف والصراع على الشيعة والخوارج وحدهم بل كان لفقهاء السلف موقفهم المعارض لكل من الشيعة والخوارج سواء في مسألة الإمامة أو الرؤية والقِدَم والحدوث والكلام الإلهي وغيرها ، بحيث اتهم كل منهم الآخر بالزيغ والبدعة والخروج عن جادة الصواب وأصول الإيمان ، ومن ثَمَّ اتسعت هوة الخلاف بين الشيعة والخوارج والسلف ، وقامت المناظرات الكلامية بينهم حول مسائل الخلاف هذه ، كل يحاول إثبات صواب رأيه ومذهبه ومدى خطأ المذهب الآخر . ومن هنا نشأ علم الكلام لمعالجة مثل هذه القضايا ومحاولة حسم الخلاف بين المتخاصمين اعتمادا على منهج الكلام القائم على احترام الرأي وأدلة العقل والنقل .

(١٢) كثرة الروايات والتفاسير : حيث كان لتعدد الآراء في الفقه وأصول الدين واختلاف بعض الصحابة في عصر الإمام علي وعثمان حول تفسير القرآن ومعاني الأحاديث وأسباب النزول وراء كثرة الرواة واختلاف الآراء ، حيث أدخل بعضهم الكثير من الروايات والقصص في التفسير القرآني والتي ليست من حقائق الدين وسميت بالإسرائيليات فكثرت التساؤلات التي أدت إلى تشويه بعض الحقائق ، واختلف المفسرون بحسب اتجاهاتهم وتنوع اجتهاداتهم في فهمهم للنص ، وكذلك الخلاف حول ورود المحكم والمتشابه في القرآن ، والاختلاف في فهم

معاني بعض النصوص والأحكام ، فكان ذلك سببا في فتح باب التأويل والرأي والجدل وكثرة التفاسير ، حيث كان لتعدد وتنوع وتعارض الآراء حول المحكم والمتشابه وتأويل هذه الآيات وتعدد الاجتهادات سببا لظهور علماء الكلام والفرق والمذاهب ، فرفض البعض التأويل والاجتهاد وتوقفوا عند ظاهر النص استنادا لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ ، واحتج الآخرون بقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ ﴾ .

(١٣) التنازع حول أهمية علم الكلام ومدى الحاجة إليه : حيث كان المعتزلة والأشاعرة أكثر الفرق الكلامية اهتماما بهذا العلم ، وكان الفقهاء والظاهرية من السلف أكثر المعارضين لهذا العلم ، فكان التساؤل : هل هناك حاجة إلى علم الكلام وخاصة أن العقائد جميعها ثابتة في القرآن ، وقد أوضحتها السنة النبوية الشريفة ، فما الحاجة إذاً إلى إثباتها؟ واحتج أصحاب الكلام بقولهم : إن علم الكلام يأخذ العقائد عن الكتاب الكريم ولا يحصلها ابتداء كما يفعل علم الإلهيات ، وقدم الكثير منهم التعليلات والأدلة مؤداها أن علم الكلام ضروري في كل عصر ، لبيان حقائق الإيمان والدفاع عن الإسلام وإثبات العقائد وتحقيق الفهم والوعي بحقيقة الدين ، وذهب المعارضون إلى أن علم الكلام بدأ كعلم نظري تحصيلي وليس مجرد محاولة للدفاع عن الدين، وهذا الرأي يؤيده أبو حيان التوحيدي في كتابه ثمرات العلوم حين يقول : وأما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار في أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتقبيح،والإحالة والتصحيح،

والإيجاب والتجويز ، والتوحيد والتفكير ، والاعتبار فيه ينقسم إلى دقيق ينفرد به العقل ، وبين جليل يفزع إلى كتاب الله تعالى ، ثم التفاوت في ذلك بين المتحلين به على مقاديرهم في البحث والتنقير ، والفكر والتحبير والجدل والمناظرة ، والبيان والمفاضلة ، والظفر بينهم بالحق سجال ، ولهم عليه مكر ومجال ، وبابه مجاور لباب الفقه ، والكلام فيهما مشترك ، وإن كان بينهم انفصال وتباين .

وقد حمل الفقهاء على علماء الكلام وذموا علمهم ونبهوا على خطرهم وخطر علمهم ، فقد روى الحافظ ابن الجوزي في كتابه مناقب الإمام أحمد ابن حنبل ، أن الإمام أحمد قال : لست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء عن هذا إلاّ ما كان في كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ أو عن أصحابه ، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود .

ثالثا : العوامل والأسباب الخارجية لظهور علم الكلام والفرق

١- **الترجمة لجميع العلوم والمعارف :** حيث كان لترجمة كتب الفلسفة اليونانية ، وكذلك كتب مختلف العلوم الطبيعية والإلهية ، وكذلك كتب التاريخ والأدب والطب عن الهنود واليونان والفرس والسريان دورا هاما في اهتمام العرب بجميع العلوم ومحاولة إثبات مكانتهم العلمية بين الأمم ، ولذا قيل إن اهتمام فلاسفة العرب بترجمة الفلسفة اليونانية ابتداء من عصر هارون الرشيد ثم ازدهارها في عصر المأمون ، هو الذي أدى إلى إدخال المذاهب الكلامية الأخلاقية القديمة وآراء الفلاسفة في الكون ونشأته وفيما وراء الطبيعة ، فتأثر فلاسفة العرب بآراء فلاسفة اليونان ونهجوا طريقتهم في المعرفة والجدل ، فكان فلاسفة العرب والمعتزلة أقرب الفرق والمذاهب إلى الفكر اليوناني حيث اعتمد رجال الكلام على المنطق والقياس والتعليلات الفلسفية والعقلية المجردة .

٢- **غموض غالبية المعتقدات الهندية والفارسية :** حيث كانت أكثر هذه الشعوب في معتقداتهم وعباداتهم على الوثنية والتعددية والثنائية قبل

ظهور الإسلام فكان المعتقد القديم يجمع بين عالم الألوهية والبشرية ، وكانت فلسفاتهم تقول بالثنائية بين إله الخير وإله الشر ، وبعضهم يقول بوحدة الوجود مثل البوذية والغنوصية والبراهمية الهندية ، وكذلك المعتقدات الفارسية مثل الزرادشتية والمانوية والمزدكية ، وبعد دخول هؤلاء إلى الإسلام حاولوا التوفيق بين معتقداتهم القديمة وبين الدين الجديد ، ولم يستطع بعضهم التخلص من معتقده أوعاداته القديمة ، وحاول بعضهم الآخر فهم الدين الجديد وأصوله ، ومن ثَمَّ كثرت التساؤلات والتناقضات ، وشعر الكثير منهم بالغموض وعدم الوضوح وصعوبة الفهم لأوليات الدين الجديد ، فكان من الضروري وجود العلماء والفقهاء وعلى رأسهم علماء الكلام الذين يوضحون لهم الحقائق والأحكام وحقيقة الدين الجديد ، وخاصة أن بعض هؤلاء كان لديهم الرغبة في فهم وإدراك حقائق عالم الغيب وتفسير أشياء فوق قدرة العقل ظانين أن العقل وحده بكاف على تقديم كافة الحقائق والمعارف .

٣- **تعدد واختلاف الثقافات والحضارات قبل ظهور الإسلام :** حيث كانت جزيرة العرب واقعة بين حضارات الشرق القديم في مصر والعراق والصين والهند وكذلك الحضارة الرومانية واليونانية ، وهذه الحضارات تنوعت ثقافتها ومعتقداتها بين المادية والروحية ، وكان اختلافها بينا عن حضارة العرب في الأصول وفي الرأي والفكر مما أثار العديد من التساؤلات التي أوجبت على علماء الإسلام بيان حقيقة ما جاء في آيات القرآن وخاصة المتعلقة بالتوحيد وبعالم الغيب والآخرة ، وفي نفس الوقت قام فلاسفة الإسلام بدراسة أوجه الشبه والخلاف بين ما جاءت به النبوات وما جاءت به الفلسفات ، وكانت كثرة الخلاف سببا في ظهور جماعة من العلماء والفقهاء في الدين يقومون بالرد على المخالفين ، ومناظرتهم بالحجة والدليل ، فكان لتعدد الثقافات وتنوع مظاهر العبادة

وأحكامها ، إلى جانب تنوع وتعدد الديانات والمعتقدات الشعبية والوضعية التي قدمها حكماء فارس وتغلغلها في حياة العرب سببا في انتشار معتقدات التشبيه والتجسيم ، مما تتطلب الرد والدفاع والمواجهة من علماء الكلام وأصول الدين والفقهاء والمفسرين من أجل المحافظة على نقاء الدين وجوهره ، ومن ثَمَّ نشأ علم الكلام .

٤- **تعدد واختلاف الرؤى وأساليب التفكير :** فقد أدى ذلك إلى تعدد المناهج وأساليب التأويل والتفسير والفهم حتى ولو كان النص واضحا صريحا ، أو كان الموضوع واحداً ، ويرجع البعض ذلك إلى تسرب الكثير من الأفكار الخارجة عن الإسلام مثل التفسير الرمزى للتوراة والذي انتقل إلى العرب عن طريق فيلون السكندرى ، هذا إلى جانب ظهور العديد من المنافقين والحاقدين على الإسلام خاصة من أهل الممالك التي فتحها المسلمون ، واختلاف نوازعهم وأهدافهم خاصة من أهل فارس وممالك الشرق والذين تعصبوا للدولة العباسية ، كما ظهرت ميول التقليد والمحاكاة للسابقين رغم أخطائهم ومساوئهم والتعصب الشديد والاعتقاد الخاطئ في صحة آرائهم .

٥- **كثرة مقالات أصحاب الشك والإلحاد :** وكان ذلك نتيجة مناخ الحرية الفكرية التي أتاحها الإسلام ، وكذلك محاولات البعض فرض معتقداتهم وأفكارهم ، إلى جانب سوء الفهم والجهل بمراد كثير من الآيات التي فهموها خطأ ، فظهرت جماعة الزنادقة والحشوية الذين تأثروا بمقالة الفلاسفة والحكماء القدامى ، كما تأثر بعض علماء الكلام بالجدل السوفسطائي العقيم ، وبعضهم تأثر بالفلسفة المشائية اليونانية مثل المذهب الذرى عند الطبائعيين ، فانتشرت النظرة الجزئية للشيء وعدم الإدراك العكسى لحقيقة الشيء ، والذي أدى إلى ضعف الإيمان والجهل بحقائق الأديان ، والذي أدى بدوره إلى اختلاف الآراء وتناقضها ، ومن ثَمَّ

كان لتسلل أفكار وآراء فلاسفة اليونان إلى بلاد العرب قبل الإسلام عن طريق قوافل التجارة بين العرب والفرس وبلاد الروم ومصر أن يعرف العرب قبل الإسلام الفلسفة اليونانية عن طريق فتوحات الإسكندر الأكبر لبلاد الفرس والهند ومصر ، عندئذ عرف العرب الكثير من التصورات الفلسفية لعالم الألوهية كما تصوره اليونان ، كما انتشرت آراء وجماعات تنكر وتشك في البعث والحساب والخلق وهؤلاء سموا بالدهرية ، وجماعات أخرى تعبد الكواكب كالصابئة ، وجماعات تعبد النار كالمجوس ، وقد امتدت هذه المذاهب حتى بعد ظهور الإسلام وترجمة مؤلفات اليونان وجميع العلوم من الهند وفارس ، وبدأ انتشار آراء فلاسفة اليونان خاصة بعد عصر الترجمة وتأثر العديد من الفلاسفة وعلماء الكلام والفقه من العرب بهذه الآراء وحاولوا التوفيق بين ما جاءت به النبوات وما جاءت به الفلسفات ، كما حاولوا التوفيق بين أفكار اليونان الميتافيزيقية وبين التصور القرآني لعالم الألوهية والغيب ، ولم تستطع الفلسفة أن تقدم براهين لإثبات الخلق والبعث والخلود والتوحيد بينما قدم الشرع التفسير المقنع لهذه القضايا ، وحرص علماء الكلام أن يثبتوا بعلمهم ما لم تستطع الفلسفة إثباته ببرهان العقل والمنطق .

* * *

الفصل الثالث

علم الكلام وعلاقته بالعلوم الأخرى

أولا : العلاقة بين علم الكلام والفلسفة

إن العلاقة بين الفلسفة وعلم الكلام هي علاقة الأصل بالفرع والجزء بالكل، هذا رغم الاتفاق والتشابه بينهما في سمة الكلية ، فكلا الفلسفة وعلم الكلام يعالج قضايا كلية مثل عالم الإنسان وعالم الطبيعة وعالم الألوهية ، أما العلاقة الضرورية بينهما في أننا لانستطيع أن نتحدث عن مكونات الفلسفة العربية بدون علم الكلام الذي هو من أهم مكونات الفلسفة الإسلامية ، ولهذا يذهب بعض الباحثين إلى أن علم الكلام هو العلم الإسلامي الأصيل الذي يجمع بين منهج الفلسفة والدين ويعتمد على أدلة العقل والنقل في إثبات الحقائق والرد على الخصوم ، وأنه العلم المعبر بحق عن الفكر الإسلامي الأصيل والفلسفة الإسلامية ، لأن العلاقة بينهما ضرورية ولا غنى للعقل عن الشرع الذي يحميه ويوجهه ، ولا غنى للشرع عن العقل في الفهم والتحليل والاجتهاد والتفسير ، ومع ذلك فبالرغم من الترابط الوثيق بينهما فإنهما يختلفان في الغاية والمصدر على اعتبار أن مصدر المعرفة وأساسها ويقينها عند المتكلم هو الشرع أولا أما عند الفلاسفة والمعتزلة فهو العقل أولا ، أما من حيث الغاية فإن المتكلم له غاية واحدة هي إثبات العقيدة والتوحيد وتدعيم الإيمان والرد على شبه المخالفين للعقيدة ، أما الفلاسفة فغايتهم المعرفة لذاتها من أجل اليقين وتغيير الواقع والممكن للوصول إلى ما ينبغي أن يكون .

والعلاقة بين علم الكلام والفلسفة قد عبر عنها أبو نصر الفارابي المتوفى

عام ٣٣٩هـ وهوأكثر الفلاسفة العرب اهتماماً بالعلاقة الضرورية بين علم الكلام والفلسفة ، وقد ظهر هذا الاهتمام في المفهوم الذي قدمه الفارابي لعلم الكلام تمييزاً له عن غيره من العلوم الشرعية ، فقد وصفه بأنه نوع من الصناعة أي أنه علم وفن معاً ، وفي هذا المعنى يقول الفارابي : إن علم الكلام صناعة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل ، وقد سار على نهج الفارابي في التمييز بين الفلسفة والكلام كلاً من الغزالي وابن خلدون ، وفي هذا المجال أشار ابن خلدون إلى أن المتكلمين يستدلون في أكثر أحوالهم بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته ، وأن المتكلم إذا نظر في الموضوعات الطبيعية فإنما ينظر فيها من حيث إنها تدل على الفاعل أو الموجد ، أما نظر الفيلسوف في الإلهيات فهو نظر في الوجود المطلق وما يقتضيه لذاته ، وأن المتكلم إذا عالج موضوعات من صميم الفلسفة والزمان والنشأة والجسم الطبيعى والحركة فإنما يعالجها ليدعم بها اعتقاداً دينيًّا لديه .

وكان من الضروري ألاّ يستقل علم الكلام عن باقي العلوم الشرعية وينأى بنفسه عن باقي العلوم ، لأن المتكلم لابد أن يكون ملمًّا بفنون اللغة والنحو والمنطق وعلوم الحكمة والدين بالإضافة إلى علمي التفسير والفقه ، وذلك لأن قضايا الكلام تميزت بطابع العمومية والشمول لمختلف القضايا والاتجهات الفكرية ، ففي المرحلة الأولى كانت مسائل علم الكلام تعالج بواسطة الفقهاء وأصحاب الرأي وأوائل الزهاد ، وذلك طوال القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجري ، ثم ظهرت علوم التفسير والحديث واللغة مع بداية مرحلة التدوين ونشأة الفرق الكلامية والمذاهب ابتداء من القرن الثاني الهجري ، ثم ظهرت التأثيرات الفلسفية في علم الكلام بعد عصر الترجمة والاختلاط باالفلسفة ومعرفة قواعد المنطق ، فأصبح الكلام يختص بالأدلة العقلية والبرهنة المنطقية كوسيلة للدفاع عن العقائد الإيمانية ، وظهرت العلاقة بين المنطق والكلام من

حيث إن علم الكلام يستطيع أن يورث قدرة على الكلام في الشرعيات كالمنطق في الفلسفات .

كما تظهر العلاقة الوثيقة بين الفلسفة وعلم الكلام في مدى اهتمام علماء الكلام بالعقل الذي هو وسيلة المعرفة واليقين عند الفلاسفة ، واستخدامهم الحجج المنطقية في مناظراتهم الكلامية ، كما تظهر العلاقة الوثيقة بين الفلاسفة وعلماء الكلام عند اشتراكهم في معالجة قضايا الفكر والاعتقاد مثل قضايا الألوهية والنبوة والإرادة والنفس وعلاقة الوجود الإلهي بالوجود الطبيعي والبشرى ، حتى كثرت تساؤلات الفلاسفة حول حقيقة هذا العلم الذي يعالج كافة قضايا الفلسفة من المنظور الاعتقادي ، لدرجة أن بعض الفلاسفة قرر أن الدين ليس في حاجة إلى إثبات أو دفاع ، واتهموا علماء الكلام بتجاوز حدود العقل وسوء استخدام مقولات اليقين في إثبات الغيبيات التي تنتمي إلى عالم الميتافيزيقا ، ومع ذلك كانت نقطة الالتقاء الكبرى بين الفلسفة وعلم الكلام هي أن حقيقة هذا العلم أنه علم عقلي يعتمد المنطق والحجة سبيلاً للمعرفة وإثبات اليقين .

وفي هذا المعنى يقول التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون : يجب أن تؤخذ العقائد من الشرع ليعتد بها ، وإن كانت مما يستقل العقل فيه ، وفي ذلك ما يميز علم الكلام عن الفلسفة ، فعلم الكلام يعالج العقائد الأصولية وفي مقدمتها التوحيد والنبوة والمعاد وأركان الإيمان التي تمثل الموضوع الرئيسي لعلم الكلام ، ومعنى ذلك أن التشابه بين علم الكلام والفلسفة يقع إلى حد ما في وحدة الموضوع والهدف وأنه يتميز عنها بشمول منهجيته ووسيلة الإثبات العقلية والنقلية ، ففي حين يعتمد الفلاسفة على العقل وحده في الوصول إلى الحقيقة وإثبات اليقين فإن علماء الكلام يعتمدون على العقل والنقل معا ، كذلك عند تحديد العلاقات والبحث عن الحقيقة فإن الفلسفة تبحث عن الحقيقة الكلية في الوجود العام وعلاقة الألوهية بالعالم المحدث ولا تبحث في

أجزاء العالم أو أجزاء الإنسان بل تبحث في طبيعة هذه المعرفة ووسائلها كأداة موجهة للفعل ، وعلى ذلك فإن الفيلسوف عندما يبحث في الوجود الإلهي ويحاول البرهنة عليه بالعقل فإنه قبل إقامة الدليل على وجوده لم يكن ليسلم بهذا الوجود ، أما المتكلم فيؤمن يقينا بالوجود الإلهي أولا ثم يدلل عليه عقليا ثانيا .

وعلى الرغم من تقارب علم الكلام والفلسفة في الموضوع والمنهج والهدف فقد حاول الإمام الغزالي في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد تحديد موضوع علم الكلام وإثبات تميزه عن الفلسفة فقال : إن المتكلم يبحث في ذات الله وصفاته القديمة ، وفي أحوال الأنبياء والأئمة وفي أحوال الموت والحياه والقيامة والبعث والحشر والحساب ورؤية الله وكلها مسائل اعتقادية وليست تعبدية ، وأن أهل النظر في هذا العلم يتمسكون أولاً بآيات الله تعالى من القرآن ثم بأخبار النبوة ثم بالدلائل العقلية والبرهانية القياسية وأنهم أخذوا مقدمات القياس الجدلي والفتاوى ولواحقها من أصحاب المنطق الفلسفي .

ولا شك أن محاولة الغزالي تحديد مسائل علم الكلام لم تمنع علماء الكلام من الاعتماد الكلي على المنطق اليوناني وأدلة البرهان الفلسفية عند الرد على المخالفين وإثبات تهافت آرائهم ، وفي نفس الوقت كانت الفلسفة تبحث في الحقيقة سواء كانت دينية أو طبيعية ، أما علم الكلام فمهمته ليست البحث بل إثبات هذه الحقيقة والدفاع عنها ، وهذا معنى القول بأن الفيلسوف يبحث أولاً ليؤمن ثانياً ، أما المتكلم فيؤمن أولاً ثم يبحث ويستدل ويثبت ثانيا ، وليس معنى ذلك تباعد علم الكلام عن الفلسفة بحجة أن أدلة الفيلسوف عقلية محضة أما المتكلم فأدلته عقلية ونقلية ولا يستغنى عن أحدهما بالآخر ، وذلك لأن الفيلسوف يعتمد على المنطق الجدلي والمتكلم يعتمد على منطق الشرع وأدلة العقل ويستخدم القياسين العقلي والشرعي ، ولذلك تسمى قضايا الفلسفة بالجدل العقلي أما قضايا الكلام فتسمى بالجدل الديني .

وفي القرن الثامن الهجري أشار عضد الدين الإيجي في المواقف إلى علاقة الكلام بالفلسفة من خلال تشابه موضوعاتهما واهتمامهما المشترك بعلم المنطق فقال : إنما سُمِّي الكلام إما لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة ، كأداة لازمة للفكر وأن المتكلمين أرادوا مقابلة علم الكلام بالمنطق ، فكما أن الأخير يُمكِّن الفيلسوف من الاستدلال فكذلك علم الكلام يُوَرِّث من يمارسه قدرة على الكلام ، ولذلك خصَّ المتكلمون بهذا الاسم .

وفي القرن العاشر الهجري أشار طاش كبرى زادة ت٩٦٢ هـ إلى التمييز بين علم الكلام والفلسفة من حيث الموضوع والهدف رغم اشتراكهما في طريقة البحث والاستدلال ، فإن الفيلسوف عندما يبحث مسألة الوجود العام أو الوجود بما هو موجود فهو يبحث عن أصل هذا الوجود المطلق باعتباره الغاية ويكون بحثه على مقتضى العقل ، أما المتكلم فيستند إلى ما جاء به الدين من اعتقادات وأصول وأحكام ، فيلتمس الحجج العقلية المثبتة لها ، فالمتكلم يعتقد ثم يستدل ، أما الفيلسوف فيستدل ثم يعتقد .

ومعنى ذلك أننا لانستطيع الفصل بين الفلسفة وعلم الكلام لأن علم الكلام من أهم مكونات الفلسفة العربية ، وأن كلاهما أداة للمعرفة والفهم وتصحيح المعتقدات الخاطئة وأداة للوصول إلى الحقائق ، ويوافق كثير من الفلاسفة على هذا الرأي على اعتبار أن الكلام يعتمد الحس والعقل في تحصيل المعارف والبحث في العلل والوصول إلى الأسباب والأدلة على وجود الله وقدرته ، وأن نظر العقل ـ أي التفلسف ـ يقوي اليقين سواء عند الفيلسوف أو المتكلم ، وأن التمييز بين علم الكلام والفلسفة يتركز في نقطة البدء لأن المتكلم يبدأ من النقل أي من النص الثابت اليقيني في القرآن أما الفيلسوف فيبدأ من ظواهر الحس وما يدركه العقل وأنه يبدأ من الممكن من أجل الوصول إلى ما ينبغي أن يكون ، ومن ثَمَّ فإن العقل هو أداة اليقين عند الفيلسوف ، أما أداة اليقين عند المتكلم فهي النص والشرع الذي يؤكده العقل بعد ذلك .

كما يمكن التمييز بين المتكلم والفيلسوف من خلال النظر وطريقة البحث ومن ناحية الهدف ، فمن ناحية البدء وطريقة البحث ، فإن المتكلم يبدأ النظر في ملكوت السموات والأرض ولديه فكرة واضحة عن ما يبحث لأنه مؤمن ويعتقد في وجود الله وقدرته ، أما الفيلسوف فيبدأ البحث دون هذه الفكرة وهو يعتمد على الظن والخيال والفروض والاحتمال وتفسير العلاقة الضرورية بين الأسباب والمسببات ، ومن حيث الموضوع فإن موضوع المتكلم هو عالم الألوهية محاولا إدراك العلاقة بين الذات والصفات وبين الخالق ومخلوقاته ، أما موضوع بحث الفيلسوف فعالم البشرية والطبيعة ، والفيلسوف يبحث في الموجودات الكونية للوصول إلى العلل والأسباب أما المتكلم فلا يبحث عن العلل لأنه يدرك أن الله هو علة العلل وهو الخالق والصانع والفاعل وعلة كل موجود ، وهذا معنى ماقيل سابقا بأن المتكلم مؤمن يريد أن يتعقل ويثبت أما الفيلسوف فهو يتعقل لكي يؤمن بعد ذلك .

ومع ذلك يمكن وصف العلاقة بين الفلسفة وعلم الكلام بعلاقة الترابط واللزوم أو التلازم لأن علماء الكلام قاموا بتصحيح الكثير من آراء الفلاسفة المتعلقة بعالم الألوهية والطبيعة ، خاصة وأن آراء الفلاسفة لاتؤكد حقائق الخلق ولا تؤكد الوحدانية ومن ثَمَّ قام علماء الكلام وفقهاء الإسلام وبعض فلاسفة الإسلام مثل الكندي وغيره وأثبتوا حدوث العالم ليثبتوا أن القديم واحد وهو الله تعالى ، كما رفض علماء الكلام ما قاله الفلاسفة في صفات الإله بأنه علة العلل أو المحرك الذي لا يتحرك أو أنه العقل الأول ، وأثبت علماء الكلام بالعقل والشرع أدلة التوحيد في الذات والصفات وأثبتوا الوحدة للذات الإلهية ، كما رد علماء الكلام وفلاسفة الإسلام على ما ذكره فلاسفة اليونان في مسائل العلية والضرورة والبعث وحشر الأجساد ووجود العالم كما فعل الغزالي في كتابه تهافت الفلاسفة ، كما قام علماء الكلام بإثبات التوحيد والقدرة والإرادة والخلق والبعث والإيجاد والعناية والتدبير لله الواحد الأحد .

كما تظهر العلاقة الوثيقة بين الفلسفة وعلم الكلام في المنهج ومحاولة فلاسفة الإسلام وعلماء الكلام التوفيق بين الفلسفة والدين ، وكان منهجهم هو الاعتماد الكامل على أدلة العقل والنقل في إثبات الحقائق والرد على الخصوم أو إقناع المخالفين بالصواب ، وأثبت علماء الكلام حقيقة التلازم بين العقل والشرع وأنه لا غنى للعقل عن الشرع ولا غنى للشرع عن العقل ليتم الفهم والتفسير والتعليل والاجتهاد .

ثانيا : العلاقة بين علم الكلام والفقه

لم يختلف علماء الكلام مع الفقهاء في أي أصل من أصول الدين والتوحيد أو إقرار العبادات المفروضة والأحكام الثابتة ، ولكن كانت الخلافات بينهم في فروع الأحكام أو تأويل بعض الآيات ، مع إقرارهم بأن علم الكلام هو الأصل وأن علم الفقه هو فرعه ، وذلك لأن كلا العلمين الفقه والكلام من العلوم الشرعية التي تنظر إلى الأحكام والأصول نظرة كلية فاحصة لاستنباط الأحكام التفصيلية ، ولكن كلاً منهما يستخدم هذه الأحكام بطريقته لتحقيق غايته ، مع الاعتراف بأن علم الكلام يتميز عن باقي العلوم الشرعية بأنه أصلها وأساسها لأنه يعالج أصول الشريعة وأحكامها الموجهة لجميع البشر ، أما علم الفقه فمهمته استنباط الأحكام التفصيلية كإيجاب الصلاة والزكاة ، وتحريم الربا ، وتحديد المواريث والبيوع ، وتحريم الضرر والضرار وإباحة ما لادليل عليه أو على طلبه أو منعه من التصرفات ، ومن ثَمَّ كان الحكم الشرعي في نظر الفقيه هو كل خطاب إلهي يتعلق بأفعال المكلفين ، أما علم الكلام فقد تناول الأحكام الاعتقادية وعلى رأسها التوحيد ، وكذلك كل حكم شرعي يتعلق بأصل الدين،وعلى ذلك سُمِّي علم الكلام بعلم أصول الدين وعلم الفقه الأكبر، تمييزاً له عن علم الفقه الذي يتناول العبادات والمعاملات التي سميت بفروع الفقه أو فروع الدين .

ولقد كانت العلاقة بين علم الكلام وعلم الفقه علاقة تلازم وارتباط أي تلازم الأصل والفرع ، هذا رغم تمسك الفقهاء بظاهر النص وتمسك رجال الكلام بمبدأ التأويل ، فكان ذلك سببا في ظهور الآراء المتعارضة ، ووقوع التنافر أو الصراع أحياناً بين الفقهاء وعلماء الكلام ، حيث تبادل كل فريق الاتهام للآخر ، فاتهم الفقهاء رجال الكلام وخاصة المعتزلة منهم بأنهم أهل الزيغ والبدع الذين قال الحق فيهم : ﴿ **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ (آل عمران:٧) وأنهم هم أي الفقهاء المقصودون بختام الآية في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (آل عمران:٧) .

ولا شك في أن هذه الآية صريحة في إثبات التلازم وليس التنافر لأنها توضح دور كل من المتكلم والفقيه ، فالفقيه يأخذ الآراء والأفعال التي صرح بها واضع الملة مسلمةً ويجعلها أصولا فيستنبط منها الأشياء اللازمة عنها في صورة أحكام اجتهادية وفتاوى لازمة ، أما المتكلم فيسعى إلى إثبات الحقائق ونصرة العقائد وتبرير هذه الأحكام ولا يأخذها كمسلمات ، وبالتالي فإن علم الفقه يبحث في فروع الدين وأما الكلام فيبحث في أصوله ، فلا خلاف أو اختلاف بينهما .

ومع ذلك فقد انتقد رجال الكلام تعدد آراء الأئمة والفقهاء واختلافها وتمسكهم بظاهر النص ورفضهم للتأويل ، ومن ناحية أخرى وقف كبار الفقهاء من علم الكلام ورجاله موقف المعارضة والرفض والذم والتحريم لعلم الكلام ، حتى عمد الفقهاء إلى تحذير الجمهور من تصديق المتكلمين أو الانتساب إليهم ، وكانت حجتهم أن علم الكلام يعتمد في حجيته على العقل ويسمح للعقل بالتدخل في الشرع وأصوله ، ولذا تشدد بعضهم وقال إن من يتكلم على طريقة المتكلمين فهو كافر ومشرك بالله ، ونرى ذلك واضحاً في آراء الإمام

أبي حنيفة النعمان ت١٥٠هـ الذي أشار إلى تعلق علم الكلام بالأصول وعلم الفقه بالفروع ، في إشارة إلى العلاقة بين الأصل والفرع ، ورغم هذا فإنه يعبر صراحة عن موقف المعارضة لعلم الكلام وخاصة المعتزلة منهم .

وقد سبق أبو حنيفة رأس المعتزلة واصل بن عطاء ت١٣١هـ في التعبير عن المواقف المتعارضة بين المعتزلة والفقهاء ، فعند واصل بن عطاء والمعتزلة عموما تظهر مسألة الكلام الإلهي وخلق القرآن ، ثم مسألة الإيمان في مقدمة مسائل الخلاف بين الفقهاء وعلماء الكلام ، وهو الخلاف الذي بلغ ذروته في زمن الخليفة المأمون عندما احتدَّ الصراع بينهما إلى حد الاضطهاد وسفك الدماء ، خاصة عندما أثيرت مسألة الكلام الإلهي بين القدم والحدوث ، وهي المسألة التي كانت سبباً أساسيًّا في إطلاق اسم الكلام على هذا العلم دون غيره ، وإذا رجعنا إلى صراع الفقهاء مع رجال الكلام وخاصة المعتزلة نرى بوضوح موقف الإمام أبي حنيفة عندما قال صراحة لأصحابه : « لعن الله عمرو بن عبيد المعتزلي فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام» ، ونفس هذا الموقف كان يمثله باقي الفقهاء مثل الإمام مالك بن أنس ت١٧٩هـ ، والإمام الشافعي ت٢٠٤هـ والذي كان يقول : لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد ، والإمام أحمد بن حنبل ت٢٤١هـ في كتابه الرد على الجهمية انتقد الحارث المحاسبي لمجرد تأييده لبعض آراء ومواقف المتكلمين ، كما وصف علماء الكلام بالزندقة لأنهم قوم على استعداد لتغيير مذاهبهم ومعتقداتهم إذا ثبت عدم صوابها ، وأنهم أخضعوا الدين لمبدأ النسبية والاحتمال والظن ، أما الفقهاء فموقفهم الثابت هو الأخذ بالثابت والظاهر من الشرع في الكتاب والسنة ولا يعولون على العقل إلا في حدود ما جاء به الشرع ، ويحذرون من أقوال الفلاسفة وعلماء الكلام لأنهم أصحاب عقل وتأويل ويخوضون في مسائل الغيب والمتشابهات والقدر .

ورغم اعتراف الفقهاء بأهمية علم الكلام ودوره في مواجهة المخالفين للدين فإنهم اختلفوا معهم في حجية الأخذ بالقياس أو اعتباره أصلا من أصول الدين الأربعة وهي القرآن والسنة والإجماع والقياس ، محتجين بأن قياسات العقل يمكن اختلافها كما يمكن أن تحكمها المصالح المرسلة ، ولقد أخذ الفقهاء من رجال المعتزلة والأشاعرة موقف المعارضة ، والذي يعبر عنه خير تعبير الإمام مالك بن أنس عندما قال لأصحابه : « إياكم والبدع » ، قيل : « يا أبا عبد الله وما البدع؟» ، قال : « أصحاب البدع هم الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان» وبعد ذلك عبر الإمام مالك عن كراهته لعلم الكلام وأصحابه فقال : « الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا ، يقصد المدينة المنورة ، يكرهونه ، ولا أحب الكلام إلاَّ فيما تحته عمل يقصد الفقه ورجاله» .

ولا شك أن هذه الكراهة والاختلاف ومواقف المعارضة من الفقهاء في مواجهة علماء الكلام لم تمنع كلاهما من القيام بدوره في تحديد دور كل علم منهما ، ولعل ذلك وراء تراجع بعض الفقهاء واعترافهم بضرورة فهم الدين وحقائق الإيمان ولكن ليس على طريقة المتكلمين ، وفي هذا الشأن كان اتفاق الفقهاء على أن علم الكلام بهذه الطريقة التي يمارسها المعتزلة في مناظراتهم لا غناء فيه ولا فائدة ، لأن الإيمان القلبى هو التصديق والتسليم والتقديس ، وأن كثرة الجدل على طريقة المتكلمين تضر بالدين ، وهذا المعنى يؤكده الإمام ابن تيمية ويستشهد في ذلك بتأويلاتهم لآيات العرش والكرسى واليد والوجه وغيرها ، ففي مثل قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) فمعناه عند الإمام مالك : « أن الاستواء معروف والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة ، والإيمان بالاستواء واجب» .

وعند بحث العلاقة بين علم الكلام والفقه تظهر هذه العلاقة في صورة المقابلة أو الملازمة أحيانا ، وهذه العلاقة أشار إليها ابن خلدون في مقدمته

على اعتبار أن الكلام يمثل الفكر والنظر ، والفقه يمثل السلوك والعمل ، ومن المستحيل فصل الفكر عن العمل أو الأصل عن الفرع ، وذلك لأن الفقه يتعلق بالعبادات والمعاملات وكلها عمل ، أما الكلام فيتعلق بالعقائد وإثباتها ، وأن علم الكلام ليس تحته عمل بعكس الحال في علم الفقه ، وهذا يدفعنا إلى القول بأن علم الفقه يستند إلى علم الكلام استناد الفرع إلى الأصل ، ودليل ذلك ما أورده التهانوي في أمجد العلوم وفي كشَّاف اصطلاحات الفنون من أن علم الفقه يسمى بعلم الرواية أما أصول الفقه فيسمى بعلم الدراية ، ولا غنى للرواية عن الدراية أي الدليل والفهم والإدراك والتدبر .

وإذا رجعنا إلى الفارابي نراه أكثر الفلاسفة تحديدا لهذه العلاقة بين الفقه والكلام لأنه جعلها علاقة تبادلية ووثيقة لأنها علاقة الأصل بالفرع ولا يمكن الفصل بين الفرع وأصله ، ورأى أن علم الكلام يتعلق بنصرة ما جاء به الدين من العقائد والأحكام ، وتفنيد كل ما خالفه بالأدلة العقلية ، وكما قال الفارابي في إحصاء العلوم : أن علم الكلام يعتمد على استنباط الأدلة العقلية والشرعية التي صرح بها واضع الملة لاستخدامها في نصرة الآراء والأفعال والأحكام الإلهية ، أما الفقه فهو نوع يتعلق باستنباط القضايا والأحكام من الآراء والأفعال المنصوص عليها في الدين من أجل استكمال الجانب العملي من الشرائع والأحكام ، ومن هنا فعلم الكلام يبحث في أصول الدين بينما يبحث الفقه في فروعه .

وهكذا فإن بحث العلاقة بين علم الكلام بوصفه علم المذاهب والفرق وبين علم الفقه تدلنا على أهمية العلوم الشرعية ودورها في تعميق الثقافة العربية ودورها الحضاري ، لأن هذه العلوم الشرعية لها دورها في التطبيق العملي للشرائع والأحكام بعد فهمها والاعتقاد بها ، وهذا المعنى هو الذي عبرت عنه المقولة الشهيرة المجمع عليها «أن إيمان المستدل أقوى من إيمان المقلد» ، ومع ذلك فقد تظهر العلاقة بين علم الكلام وعلم الفقه في صورة تبادلية

أوعلاقة تأرجح بين التشابه أحياناً والاختلاف أحيانا أخرى رغم أن كلاهما يتطلب عمل العقل من أجل الفهم وإثبات النص ، ولم يمنع ذلك كل فريق من أن يميز علمه في موضوعه ومنهجه ، فسُمِّي علم الفقه بعلم الفتاوى والأحكام بوصفه العلم المبين للدلائل والعلل ، وأنه علم الفروع الفقهية العملية ، وفي نفس الوقت سُمِّي علم الكلام بعلم الفقه الأكبر لأنه يتعلق بالأصول الاعتقادية الثابتة وأنه أحد العلوم الشرعية المصطبغة بصبغة عقلية ، وتدور مسائله حول أصول العقائد وإثباتها بأدلة العقل ضد الآراء المخالفة .

ولقد اتفق الفقهاء وعلماء الكلام من حيث المنهج على مبدأ الاجتهاد واحترام الرأي والرأي الآخر ، فلم يعارض الفقهاء المبدأ الكلامي القائل : رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب ، وكذلك لم يعترض الفقهاء على مبدأ الاجتهاد القائل : إن آراء العلماء والفقهاء المبنية على اجتهاد في النص مجمع على صحتها ، فإنه لايصح أن يحكم عليهم أي الفقهاء والعلماء بالزيغ أو الضلال ، فللمجتهد رأيه واجتهاده الذي يمكن الأخذ به والعمل به وله أجره إذا كان صائبا ، وإن كان خاطئا فله أجر اجتهاده وإن أصاب فله أجران ، وأما وجه الاختلاف المنهجي بين الفقه والكلام ، فإن الفقيه يعتمد على الاستنباط والاستدلال فقط دون الجدل أو إيراد الحجج والعلل ، فهو يتناول أحكام الشرع وأركانه ويدرس ما يترتب عليها من نتائج ، أما المتكلم فلا يقتنع إلاَّ بدليل العقل ويناقش كل حجة ويبرهن عليها بعد معرفة أصلها وحكمها وكيفية تطبيقها وفائدتها والدليل على صحتها من أجل مواجهة المخالفين ، أما الفقيه فيواجه أصحاب السؤال والمحتاجين للمعرفة من أهل ملته ، فى حين أن المتكلم يواجه المخالفين والمعاندين والرافضين لهذه الأصول ، ومن ثَمَّ فإن المتكلم يبدأ من مسلمات عقائدية ثابتة ثم يتلمس الأدلة والبراهين التي تؤدي إلى إثبات هذه المبادئ سواء كانت براهين عقلية أو نقلية .

وفي هذا المعنى يقول الخوارزمي : وقد اقتضت طبيعة هذا العلم أي علم الكلام الخلاف في مسائل كثيرة منها أنه تعالى لايشبه شيء ولا يدانيه شيء ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء وذلك ليرد به على المشبهة والمجسمة في الرؤية ، والكلام في الرؤية بين نفيها وإثباتها ، والكلام في الصفات للرد على المعطلة ، والكلام في أفعال العباد وهل يخلقها الله أم العباد أنفسهم ، وأنه تعالى يريد القبائح أولا ، والقول في الإمامة ومن يصلح . وهذا الكلام فيه دلالة على أن طبيعة الخلاف بين الفقه والكلام في فهم النصوص وتأويلها كان سببا وراء اتساع هوة الخلاف بينهما بالإضافة إلى اختلاف الغايات ودور كل منهما حيث كانت مهمة المتكلم الدفاع عن العقائد بأدلة العقل والرد على المخالفين ودحض شبهاتهم بحجج المنطق ومختلف الأدلة النقلية والعقلية ، أما مهمة الفقيه فهى الفهم والدراسة ومعرفة النتائج المترتبة على تنفيذ الأحكام الشرعية ، وعلى ذلك فمهمة الفقيه استنباط الأحكام الموافقة للنص ومناقشتها وإثباتها بالأحكام والنصوص الواردة في الشرع أيضا .

ومعروف أن هذا التمييز بين علم الفقه وعلم الكلام قد سبق إليه عبد الكريم الشهرستاني ت٥٤٨هـ في كتابه «الملل والنحل» ، عندما أثبت أن علم الكلام يتعلق بالأصول الاعتقادية لما لها من صبغة نظرية معرفية فهي معرفة ، أما الأحكام الشرعية العملية المتعلقة بالعبادات والمعاملات لما لها من صبغة عملية فهي طاعة وعبادة في نفس الوقت ، وأضاف الشهرستاني أن المتكلمين الذين يبحثون في الأصول يهتمون بمعرفة الباري تعالى بوحدانيته وصفاته ومعرفة الرسل بآياتهم وبنياتهم ، ومن المعلوم أن الدين إذا كان منقسماً إلى معرفة وطاعة ، فالمعرفة أصل والطاعة فرع ، ومن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصوليا ، أي متكلما في الأصول ، ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعيا ، والأصول هي موضوع علم الكلام ، والفروع هي موضوع علم الفقه .

وهكذا أثبت العلماء والفقهاء والفلاسفة العلاقة الوثيقة بين علم الكلام وعلومهم ، وكيف يتميز كل منهما عن الآخر بسمات تميزه سواء في المنهج

وطريقة الاستدلال ، أو في الهدف والغاية منه ، هـذا رغـم الاتفـاق في المصـدر والارتباط الوثيق بالشرع وأحكامه .

ثالثا : العلاقة بين علم الكلام والتصوف

لاشك أن بعض المتصوفة كان لهم السبق في اكتشـاف هـذه العلاقـة الوثيقـة بين علم الكلام وغيره من العلوم مثال ذلك ما قدمه الحسن البصري ت١١٠هـ، والإمام جعفر الصادق ت١٤٨هـ ، وسفيان الثوري ت١٦١هـ فقـد قـرر هـؤلاء المتصوفة من الأوائل ضرورة التأمل العقلي في كتاب الله وفهـم أحكامـه ، فهـذا الحسن البصري يقول صراحة : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلـم مـا أراد بها ، كما حدد المتصوفة الأوائل سمة التميز والاختلاف بين مباحث علم الكلام وغيره من العلوم ، وجاء تحذير الإمام جعفر الصـادق للمـتكلمين في الإلهيـات والغيبيات فقال : تكلموا فيما دون العـرش ، ولا تتكلمـوا فيمـا فـوق العـرش ، فإن قوماً تكلموا في الله فتاهوا ، يقصد بذلك علماء الكلام ، ونفس هذا الموقف أخذه سفيان الثوري الذي بدأ يحذر أصحابه من الخوض في مسائل الكلام فقال لأصحابه : عليكم بالأثر وإياكم والكلام في ذات الله والقدر .

وإذا كان علم الكلام أكثر العلوم العربية اهتماماً بالجانـب العقلـي والنظـري فإن المقابل العملي كان متمثلاً في علـم الأخـلاق والتصـوف والفقـه ، لأن علـم التصوف الذي يجمع بين النظر والعمل في كثير من جوانبه كان مهتمًّا بالأحكام الشرعية والعبادات من ناحية آثارها في قلوب المتعبدين بها وبالتالي فهو يعـني بجانب السلوك والأخلاق على أساس مـن الـذوق الروحـي والوجـدان العـيني ، ومن هنا لا نستطيع أن نفصل بين الدين والخلـق والتصـوف ، لأننـا لا نسـتطيع بحال أن نفصل بين الإيمان والعمل أو نفصل بـين علـوم الشـريعة الـتي سميـت بعلوم الدراية كالفقه والأصول والكلام ، وبين علوم الروايـة وهـي علـوم القـرآن والحديث والتفسير .

وقد ظهر التقارب بين علم الكلام والتصوف عندما لم يعارض المتصوفة علم الكلام أو أصحابه مثلما فعل الفقهاء ورجال السلف بل كانوا من المدافعين عن الجدل كمنهج وطريق لإثبات الحقائق ورد شبه المخالفين ، واستدلوا على ذلك بورود آيات الجدل في القرآن ، فهذا هو الإمام ابن عساكر في كتابه تبيين كذب المفترى يستشهد بما ذكره القشيري عن احتواء القرآن لمسائل الجدل والكلام والدعوة إليه لأنه سبيل الفهم والمعرفة بأحكام الله ودلائل قدرته ، فيقول القشيري في رسالته : والعجب ممن يقول ليس في القرآن الكريم علم الكلام ، والآيات التي هي في الأحكام الشرعية نجدها محصورة أي محدودة والآيات المنبهة على الأصول نجدها توفي على ذلك وتربي أي تزيد بكثير من آيات الأحكام .

ومعنى ذلك أن المتصوفة رغم أنهم لم يعتمدوا العقل وسيلة للمعرفة والبرهان كالفلاسفة أو المتكلمين فإنهم لم يعارضوا علم الكلام وأصحابه مثلما فعل الفقهاء وأئمة السلف ، فالمتصوف لايعتمد على الحس أو العقل في الوصول والمعرفة والإيمان بل يعتمد القلب والوجدان أو ما يسمى بالحس الباطني والإلهام ، ومع ذلك فهو يتفق مع المتكلم والفقيه في التصديق والاعتقاد بمبادئ الشرع وأحكامه وأهمية العبادة والمعرفة بالأحكام هذا على الرغم من اختلافهم في المنهج وطريقة الوصول والمعرفة بالله ، فالمتصوف يدرك الله وصفاته لاعن طريق الاستدلال بل عن طريق الإلهام المباشر والمجاهدة والذكر والقرب من الله ، ولهذا يدعي المتصوف أن إدراكه بالصفات أكثر كمالا من الفيلسوف والمتكلم المعتمد على استلالات العقل وبراهينه ، ومن ثَمَّ فتوحيد المتصوف يعتمد على الذوق والتجربة الذاتية من أجل المعرفة والقرب من الله .

وكان من الطبيعي ألا يتفق المتصوفة مع الفلاسفة ولا علماء الكلام في انتهاج العقل أو الحس لأن العقل وملكاته أدوات لإدراك عالم الحس وهي من الحجب التي تحجب المعرفة والوصول إلى الحقيقة ، وأصر الصوفية على انتهاج العاطفة والقلب والإرادة والإلهام المباشر الذي يعين الصوفي على إدراك

عالم الغيب ومعاينة الله ومشاهدته ، كما اختلف الصوفي عن المتكلم الذي يسعى للبرهنة على الحقائق بأدلة العقل والنقل ، لأن الصوفي يعتبر الحقائق ذاتية وليست موضوعية وغايته الوصول إلى مقام المحبة والشوق والقرب والفناء ، أما غاية المتكلم الأساسية هي إثبات واحدية الذات أو إظهار الطاعة والإخلاص في العبادة .

ومن أجل ذلك كان للفلاسفة وعلماء الكلام موقفا نقديا من بعض أفكار الصوفية المتعلقة بالعلاقة بين عالم الألوهية وعالم البشرية وحدود الإرادة الإنسانية وقولهم بضرورة تلاشي إرادة الإنسان في إرادة الله وأن ذلك هو الدليل على تمام التوحيد وصدق الإيمان واليقين ، كذلك انتقد الفلاسفة وعلماء الكلام موقف الصوفية من قضية التأويل ورفض الصوفية الاستدلال بالعقل لإثبات الحقائق وقول بعضهم بالتأويل الباطني لحقائق الوجود وآيات الشرع ، وقول بعضهم بوحدة الوجود ووحدة الإرادة على اعتبار أن المريد صاحب الإرادة المطلقة هو الواحد والقادر سبحانه وتعالى ، كما انتقد الفلاسفة وعلماء الكلام ما قاله بعض المتصوفة عن الحقيقة المحمدية والإنسان الكامل الذي تتحد إرادته مع إرادة الحق ، فأنكر الفلاسفة وعلماء الكلام هذه الآراء وقدموا الانتقادت العقلية والشرعية عليها وقالوا لايتصف بالإنسانية إلا من كان حرا مريدا عاقلا ومفكرا ومختارا ومسئولا .

كما اتهم الفلاسفة وعلماء الكلام مواقف الصوفية خاصة المتعلقة بالأحوال والمقامات وقولهم بالحلول والفناء ، لأن قولهم بهذه الأحوال قد أبعدوا الإنسان كلية عن إنسانيته وأنكروا عليه حريته وإرادته كما أنكروا عليه قدرته على التفكير والتدبير كما أنكروا دور العقل والحس في معرفة الحقائق ، وعلى الرغم من هذه الاتهامات كلها فقد اتفق المتصوفة مع علماء الكلام والفلاسفة حول غاية التوحيد والمعرفة وهي تحقيق كمال الإنسان وسعادته وإن اختلفوا معهم في طريق الوصول إلى هذا الكمال وهذه السعادة .

* * *

الفصل الرابع

مباحث علم الكلام وفوائده

أولا : موضوع علم الكلام ومباحثه

تعددت موضوعات علم الكلام ومباحثه حتى أنها شملت جميع قضايا الدين والفلسفة والفقه والتصوف والسياسة والأخلاق ، وذلك لأن علماء الكلام عالجوا مبادئ الفكر والنظر ومبادئ المنطق والفلسفة ومسائل التأويل والجدل والقياس ، كما عالج علماء الكلام قضايا الإيمان والإسلام والعلاقة بينهما ، وهل يزيد الإيمان بالطاعات وينقص بالمعاصي أم لا ، وهل الإيمان كل أم جزء ، وما حقيقة الإيمان وما علاقته بالعمل ، وهل مرتكب الكبيرة أو الذنب يظل على إيمانه أم لا ، كما عالجوا قضية التوحيد والصفات والوجود الإلهي وأدلة وحدانيته ، كما عالجوا أسباب ظهور علم الكلام والفرق ومدى الخلاف بينها ، وكذلك أسباب ظهور الفرق المتشددة في كل فرقة ، كما عالجوا قضية العلاقة بين العقل والشرع وأيهما أسبق ، وأيهما يحسن ويقبح ، وأجمعوا على ضرورة الجمع بين العقل والشرع ، وأنه لاغنى للدين عن العقل ولا غنى للعقل عن الدين والشرع كموجه للعقل وضابط ومرشد له ، كما حصر علماء الكلام مهمتهم في الرد على أصحاب الفكر المتشدد سواء من الفقهاء أو من أصحاب الادعاءات الباطلة كالباطنية والروافض والمجوسية والقائلين بالتناسخ ، ولذا كان إجماعهم على أن الغاية واحدة وهي إثبات الحقائق وتدعيم اليقين والرد على المخالفين .

وفي منتصف القرن الخامس الهجري كتب الإمام أبي محمد بن حزم الأندلسي ت ٤٥٦ هـ في كتابه : « علم الكلام على مذهب أهل السنة والجماعة »، عن أهم الموضوعات التي يعالجها علم الكلام وحصرها في علم التوحيد والنبوات والسمعيات ، مؤكدا على أن أصحاب الفرق والمذاهب لم يختلفوا حول أصل التوحيد رغم اختلافهم في مفهوم الإيمان وعلاقته بالعمل أو في حقيقة الإيمان وزيادته ونقصانه ، وأنهم حصروا اهتمامهم في تفسير معنى الوحدانية وإثبات أدلة التوحيد ، وفي أقسام التوحيد كموضوع هام من موضوعات علم الكلام وفي هذا المعنى يقول ابن حزم : إن علم التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام وهي الإلهيات والنبوات والسمعيات ، والإلهيات تشتمل على إثبات وجود الله تعالى بالأدلة العقلية والنقلية وبيان صفاته وإقامة الأدلة عليها ، والنبوات وهي تشتمل على بيان حاجة الناس للأنبياء والرسل الذين أيدهم الله بالمعجزات الخارقة للعادات ، والسمعيات وهي تشتمل على بيان الأمور الغيبية التي لاتدرك بالحواس مثل القيامة والجنة والنار والصراط والميزان ، كما أكد ابن حزم على أن التوحيد هو أول ما يلزم كل أحد ولا يصح الإسلام إلا به ، وبرهان ذلك ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ».

وقد ركز علماء الكلام والفرق على موضوع النبوة وإرسال الرسل ، ويقول في ذلك القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه « المختصر في أصول الدين » : ينبغي أن تعرف أولا جواز بعث الله الأنبياء ، وأن ذلك حسن وصواب ، ثم تعلم ما يدل على نبوتهم من المعجزات وصفتها ، وتعلم كيفية التوصل إلى معرفة كون المعجزات بالأخبار وغيرها ، وتعلم ما الفائدة من بعثهم وما الذي يلزمنا أن نعلم في القبول منهم ، وتعلم أن نسخ الشرائع جائز من جهة العقل والسمع جميعا .

ويعتبر القاضي الأرموي في مقدمة من اهتموا ببيان موضوع علم الكلام وفائدته ، وجعل البحث في مسائل الذات والصفات في مقدمة موضوعات علم الكلام ، فموضوع علم الكلام عنده هو ذات الله تعالى إذ يبحث فيه عن عوارضه الذاتية التي هي صفاته الثبوتية والسلبية ، وعن أفعاله إما في الدنيا كحدوث العالم وإما في الآخرة كالحشر ، وعن أحكامه فيهما كبعث الرسل ونصب الإمام في الدنيا من حيث إنهما واجبان عليه تعالى أم لا ، والثواب والعقاب في الآخرة من حيث إنهما يجبان عليه أم لا .

ومعنى ذلك أن موضوع علم الكلام عند الأرموي هو المعلوم من العقائد وأصولها ، حيث إنه يتعلق بإثبات العقائد الدينية ، وذلك لأن موضوعات هذا العلم هو العقائد الدينية المتعلقة بإثبات الصفات الثبوتية للحق تعالى كالواحدية والقدرة والقِدَم وغيرها ، وأن هذه الموضوعات تتناول الموجود والمعدوم معا ، بمعنى أنها تعالج أحكام الشرع المتعلقة بالمعلوم بما هو من العقائد والحكم عليها شرعا وعقلاً ، ولهذا جاء تحديد القاضي الأرموي لموضوع علم الكلام الرئيسي وهو ذات الله تعالى وصفاته .

وفي هذا الإطار جاءت آراء الأشاعرة المتأخرة لتبين الطابع الفلسفي لعلم الكلام ، والتي يعبرعنها الغزالي عند إشارته لمدى اهتمام علماء الكلام بالعقل والمنطق ، وعند تحديد موضوع علم الكلام بأسلوب فلسفي أكثر منه كلامي ، حيث قال : « إن موضوع علم الكلام هو الموجود بما هو موجود ، أي من حيث هو هو غير مقيد بشيء» ، ويمتاز الكلام عن الإلهي باعتبار أن البحث فيه على قانون الإسلام أي الشرع لا على قانون العقل ، ولعل ذلك وراء انتقال علماء الكلام من بيان موضوع العلم إلى بيان غايته وهي الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان ، وإرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة لهم وإلزام المعاندين بإقامة الحجة عليهم ، وحفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين ، وأن تبنِّي عليه العلوم الشرعية لأنه الأساس في هذه العلوم لأنه

أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها ، فإنه ما لم يثبت وجود صانع عالم قادر مكلف مرسل للرسل ومنزل للكتب لم يتصور علم تفسير ولا علم فقه وأصوله، فكلها متوقفة على علم الكلام ، وغاية هذه الأمور كلها الفوز بسعادة الدارين .

وعند الإمام الخوارزمي فإن موضوع علم الكلام وغايته يتحدد من حيث دلالته على الله تعالى وبيان أصول الدين التي يتكلم فيها المتكلمون وأولها القول في حدوث الأجسام والرد على الدهرية الذين يقولون بقدم الدهر والدلالة على أن للعالم محدثا هو الله تعالى والرد على المُعطلة .

وكان موضوع علم الكلام عند ابن خلدون في أواخر القرن السابع الهجري هو : مجموع الأمور الاعتقادية ، وهي الأمور التي كلفنا بتصديقها واعتقادها في أنفسنا مع الإقرار بألسنتنا ، وعلى ذلك يكون الإيمان بأركانه هو موضوع ذلك العلم ، أي تلك الأمور الاعتقادية التي تقررت في حديث النبي ﷺ عن الإيمان : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره» . وهذه هي العقائد الإيمانية المقررة في علم الكلام ، وهذه الأمور الاعتقادية غير الأمور العملية التي يهتم بها علم الفقه ، فالاعتقادية تتعلق بالذات والصفات أما العملية فتتعلق بكيفية العمل كوجوب الصلاة والزكاة والحج والصوم والميراث وغيرها من الفروع والأحكام الظاهرة .

ومعنى ذلك أن الدين يقوم على أصول وفروع ، وأن علم الكلام يتناول أصول الدين في مقابل الفقه الذي يتناول الأحكام العملية أي الفروع ، ومن هذا يتبين التلازم الضروري بين موضوعات علم الكلام والغاية منه ، وإثبات أن شرف علم الكلام وأهميته من شرف موضوعه وغايته ، وأن ما ذهب إليه ابن خلدون قد سبقه إليه كل من الفارابي والإيجي حيث حددا غاية علم الكلام ومهمته في نصرة العقيدة الإسلامية وإثبات الواحدية لله تعالى ، مع ملاحظة أن ابن خلدون قد حصر مهمة ذلك العلم في نصرة الاعتقادات على مذهب السلف وأهل السنة فقط ، وذلك في مقدمته حين قال :

إنه العلم الذي يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات ، على اعتبار أن علم الكلام مهمته الدفاع عن الشبه والادعاءات الباطلة بإثبات العقائد وتصحيح الفهوم الخاطئة .

ثانيا : علم الكلام بين المؤيدين والمعارضين

كان لعلم الكلام مؤيديه من الفلاسفة ابتداء من الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي ، وأصحاب الفرق والمذاهب وفي مقدمتهم المعتزلة والأشاعرة ، وبعض الفقهاء المتنورين وهؤلاء بينوا حقيقة هذا العلم وأهميته ومدى الحاجة إليه ، كما كان له الكثير من المعارضين على رأسهم العديد من الفقهاء ورجال السلف من الجهمية والجبرية ، وكان الحسن البصري في طليعة المؤيدين وأول من نبه على أهمية علم الكلام والحاجة إليه ، وكان من أوائل المؤيدين لهذا العلم ، ولتأكيد هذه الأهمية بعث برسالة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يبرر له سبب اهتمام العلماء والفقهاء ورجال المذاهب بمسائل التوحيد والصفات والقضاء والقدر فقال له في رسالته : لم يكن أحد من السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد ، وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس من النكرة له ، ولما أحدث المحدثون في دينهم ما أحدثوه أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات ويحذرون به من المهلكات .

وذهب عبد القاهربن طاهر البغدادي في كتابه أصول الدين إلى أن كبار الصحابة هم الذين أرسوا قواعد وأصول علم الكلام تحت مسمى علم التوحيد الذي يعتمد على الأدلة النقلية والعقلية في الاستدلال والرد على الخصوم ، وأن الإمام علي بن أبي طالب كان أول متكلمي أهل السنة من الصحابة وذلك لمناظرته الخوارج في مسائل الإمامة والوعد والوعيد ، ومناظرته للقدرية في القضاء والقدر والمشيئة والاستطاعة ، ثم كان عبد الله بن عمر أيضا مناظرا للخوارج والقدرية والجهمية ، ثم كان زيد بن علي بن الحسين ، ثم الحسن البصري وكثير من الصحابة والتابعين الذين كثرت مؤلفاتهم ورسائلهم في الرد على القدرية .

كما دافع المتكلمون عن علمهم ، فأثار الإيجي في المواقف موضوع علم الكلام ومدى الحاجة إليه ، وأهمية ذلك العلم الذي يقوم على العقل والنقل ، ويعالج قضايا المعرفة والعقيدة والأخلاق ، ووصفه بأنه أشرف العلوم وأعلى العلوم وذلك لأن موضوعه أهم الأمور وأعلاها ، وغايته أشرف الغايات وأجداها ، ودلالته يقينية يحكم بها صريح العقل ، ولذلك فهو أشرف العلوم وأهمها ، ثم جاء أبو الحسن الأشعري ت٣٣٠هـ ، الذي وضع رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام رد فيها على دعاوى الحنابلة الذين ذموا الكلام وأهله ونهوا عن الخوض فيه ، ثم من بعده فخر الدين الرازي ت٦٠٦ هـ الذي وضع هو الآخر رسالة في وجوب معرفة الأدلة وإثبات العقائد من أجل رسوخ العقيدة وإثبات اليقين ، وأكد المعتزلة والأشاعرة على أهمية علم الكلام ولزومه وإثبات أن مباحث المتكلمين وأدلتهم ومصطلحاتهم ضرورية لخدمة الدين ، لأنها تقوم على الحجج العقلية وعلى القياس وأنها تعتمد في الأصل على أدلة النقل من القرآن والحديث، وأن هدفها إثبات الأصول وإقرار العقائد.

ومن أجل التأكيد على أهمية علم الكلام والحاجة إليه كتب الإمام أبي الحسن الأشعري رسالة مخصوصة سماها: «في استحسان الخوض في علم الكلام» تناول فيها أهمية مناهج المتكلمين والاعتماد على العقل في الاستدلال والتأويل والفهم وإزالة الجهل والرد على شبهات أصحاب البدع وفيها يقول: إن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأس مالهم ثقل عليهم النظر والبحث عن الدين ومالوا إلى التخفيف والتقليد وطعنوا على من فتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال ، وزعموا أن الكلام في الحركة والسكون والجسم والعرض والألوان والأكوان والجزء والطفرة وصفات البارى عز وجل بدعة وضلالة ، وقالوا لو كان ذلك هدى ورشادا لتكلم فيه النبي ﷺ وآله وخلفاؤه وأصحابه ، وأن النبي لم يمت حتى تكلم في كل ما يحتاج إليه من أمر الدين وبينه بيانا شافيا ، ولم يترك بعده لأحد مقالا فيما للمسلمين إليه حاجة من أمور دينهم

وما يقربهم إلى الله عز وجل ويباعدهم عن سخطه ، فلما لم يردوا عن الكلام في شيء مما ذكرنا علمنا أن الكلام فيه بدعة والبحث عنه ضلالة ، لأنه لو كان خيرا لما فات النبي ﷺ ولتكلموا فيه ، فهذه جملة ما احتجوا به في ترك النظر في الأصول .

ويرد الأشعري على أقوال السلف والفقهاء واتهاماتهم هذه بقوله : والجواب عن ذلك من ثلاثة أوجه : أحدها : أن النبي ﷺ لم يقل بمقالتكم فهو لم يقل إنه من بحث عن ذلك وتكلم فيه فاجعلوه مبتدعا ضالا فقد لزمكم أن تكونوا مبتدعة ضلالا إذ قد تكلمتم في شيء لم يتكلم فيه النبي ﷺ وضللتم ، والثاني : أن يقال لهم إن النبي ﷺ لم يجهل شيئا مما ذكرتموه من الكلام في الجسم والعرض والحركة والسكون والجزء والطفرة ، وإن لم يتكلم في كل واحد من ذلك معينا ، وكذلك الفقهاء والعلماء من الصحابة غير أن هذه الأشياء التي ذكرتموها معينة أصولها موجودة في القرآن والسنة جملة غير مفصلة ، أما الحركة والسكون والكلام فيهما فأصلهما موجود في القرآن وهما يدلان على التوحيد ، وكذلك الاجتماع والافتراق قال الله تعالى مخبرا عن نبيه إبراهيم في قصة أفول الكوكب والشمس والقمروتحريكهما من مكان إلى مكان فدل على أن ربه عز وجل لايجوز عليه شيء من ذلك وأن من جاز عليه الأفول والانتقال من مكان إلى مكان فليس بإله ، وأما الكلام في أصول التوحيد فمأخوذ أيضا من الكتاب في قوله تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ** ﴾ ، وهذا الكلام موجز منه على الحجة بأنه واحد لا شريك له ، وكلام المتكلمين في الحجاج والتغالب مرجعه إلى هذه الآية ، وكذلك سائر الكلام في تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هومأخوذ من القرآن .

ومن أجل التأكيد على أهمية علم الكلام والجدل استشهد المؤيدون لعلم الكلام بما جاء في القرآن من دعوة للجدل مع المخالفين والمعاندين ، كما

استشهدوا بالمناظرات التي وردت في القرآن بين الأنبياء وأقوامهم ، وكذلك المناظرات التي أجراها النبي ﷺ مع وفد نجران ومناظرات الإمام علي بن أبي طالب مع الخوارج ورجوع الفين من الخوارج بعد مناظرة علي رضي الله عنه لهم ، وكذلك مناظرة أبي الهذيل العلاف مع المجوس ودخول حوالي ثلاثة آلاف مجوسي إلى الإسلام بعد المناظرة .

ولقد أثبت الأشعري وأصحابه أن النظر في معرفة الله واجب شرعاً لأنه لا تتصور العبادة بدون معرفة المعبود ، وأن كل معرفة لابد أن تتوقف على النظر أي نظر العقل في الدين ، وبالتالي فإن النظر واجب عقلاً وشرعاً وأن ذلك يجب على الكفاية من أجل تفصيل الدلائل وبحيث يتمكن معه من إزالة الشبه وإلزام المعاندين وإرشاد المسترشدين ، وفي هذا الإطار عقد إمام الحرمين أبو المعالى الجويني ت٤٧٨هـ في كتابه «الشامل» : فصلاً لبيان أن النظر والاستدلال واجبان ، وأن الدليل على وجوب النظر دليله إجماع المسلمين على وجوب معرفة الله تعالى ومعرفة شرعه وجميع أحكامه .

وقد سبق الغزالي ت٥٠٥هـ الجويني وغيره في التأكيد على أهمية علم الكلام ولزومه ، وخاصة عندما تكون مهمته الدفاع عن آراء أهل السُّنة والسلف وإثبات الحقائق وإبطال شبه المخالفين والمبتدعة والمنحرفين ، ودليل ذلك قول الغزالي في «المنقذ من الضلال»: ألقى الله سبحانه إلى عباده على لسان رسوله ﷺ عقيدة هي الحق وما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار ، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسُّنة فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها ، فأنشأ الله سبحانه وتعالى طائفة المتكلمين وحرك دوافعهم لنصرة السُّنة المأثورة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله ، ومعنى ذلك أن الغزالي جعل مهمة الكلام حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة .

وهكذا دافع الفلاسفة وأصحاب المذاهب والفرق وعلى رأسهم المعتزلة والأشعرية وكذلك الشيعة والخوارج عن علم الكلام وفوائده ، وأمام دفاع أصحاب الفرق ورجال الكلام عن علمهم ومذاهبهم قام المعارضون من الفقهاء ورجال السلف بمهاجمة علم الكلام وأصحابه ، وعلى رأسهم الإمام أحمد ابن حنبل ، والإمام ابن تيمية وابن قتيبة وأمثالهم ، وقد احتج المعارضون لعلم الكلام بقولهم : إن في الكتاب والسُّنة الغنى والكفاية عن أي مصدر آخر لمعرفه الله ووحدانيته وصفاته وأسمائه الحسنى ، ففي الكتاب الكريم بيان لكل شيء ، وأن الصحابة والتابعين لم يقحموا أنفسم مشقة النظر في الدين والبحث في هذه المسائل الغيبية الصعبة ، وأن منهج المتكلمين يبتعد عن الموضوعية ، وأن المتكلمين يسيئون استخدام مبدأ الالتزام بأوامر الشرع ، أي إلزام الإنسان بما لم يقله وإلزامه إياه ، وأصبحت كل فرقة تلزم مخالفيها بنتائج أقوالها التي لم تقلها ، ولعل طبيعة المنهج الجدلي والبعد عن الموضوعية أحياناً جعل كل فريق يرمي خصمه بكثير من التهم ويحاول إفحامه بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة فشاع الجدال والإلزام بين الفرق .

كما احتج الفقهاء والسلف الذين عارضوا علم الكلام بأن ما يجب فيه الكلام فقط هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأن منهج المتكلمين يستخدم الأقيسة المتعارضة والمتناقضة والصعبة كقياس الغائب على الشاهد والقياس التمثيلي في العلم الإلهي ، لأنه لا يجوز أن يستوي فيه الأصل والفرع لأن الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١) ، وأكد ابن تيمية بأن هذه الأقيسة هي التي أدت إلى تضارب أدلتهم ، ويؤكد ابن تيمية على أن المتكلمين لم يستخدموا قياس الشمول الذي تستوي أفراده ، ولا قياس التمثيل الذي يؤكد أن الله تعالى ليس كمثله شيء ، وأنه تعالى لا مثيل له ولا يجتمع هو وغيره تحت الكل الذي تستوي أفراده .

ولقد تشدد الفقهاء ورجال السلف من الجبرية في حكمهم على علماء الكلام وأصحاب المذاهب إلى حد وصفهم بالكفر والزندقة وأنهم أصحاب

البدع والزيغ أي البعد عن الحقائق ، وأنهم أهل ضلال ، كما اجتمع الفقهاء على القول بتحريم علم الكلام والتحذير من الكلام في العقائد لأنه يورث الشك في الاعتقاد ويؤدي إلى التحزب والتفرق والاختلاف ، ويقود إلى النظر في قضايا الغيب وما يتجاوز حدود العقل والتجرؤ على الكتاب والسنة ، ولذا حرص الفقهاء على ربط العقيدة بالكتاب والسنة وآراء الصحابة وفقهاء السلف .

وكان السبب الرئيسي في موقف العداء بين السلف والفقهاء من جهة وبين أصحاب الكلام والفرق من جهة ثانية ما أثير من قضايا ذات طابع فلسفي وسياسي ، مثل قضايا الإمامة والخلافة ، وقضايا الوجود الإلهي ، وقضية الوجود الطبيعى وصدور العالم ، فكان السبب هو الكلام والاختلاف في هذه القضايا ، إلى جانب الاختلاف في قضايا خلق القرآن ومرتكب الكبيرة وحقيقة الإيمان والقدر وغيرها .

وهذه بعض الأمثلة لمواقف المعارضين من الفقهاء لعلم الكلام وأصحابه :

- الإمام أحمد بن حنبل ت٢٤١ هـ والذي كان يقول : أدركنا عليه ما أدركنا من أهل العلم أنهم كانوا يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ أي أهل الضلال من المتكلمين ، ويقول في موضع آخر : لايفلح صاحب كلام أبدا ، وعلماء الكلام هم الزنادقة أي الملاحدة الذين ينكرون عالم الألوهية والحساب ، ويقول أيضا : ولست بصاحب كلام ولا أرى الكلام في شيء إلا ما كان في كتاب الله عز وجل أو في حديث للنبي ﷺ ، وأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود .

وهذا الكلام يدل على أن الفقهاء ورجال السلف كانوا في مقدمة المعارضين لعلم الكلام وهم الذين أفتوا بتحريمه ، فكان الإمام عبد الله الأنصاري الهروي ت٤٨١هـ في مقدمة من ذموا الكلام في كتاب مخصوص بعنوان ذم الكلام ، ثم جاء الإمام ابن حنبل ت٢٤١هـ وذم الكلام وأهله وقال مقولته الشهيرة : لايفلح صاحب كلام أبدا ، ولا يرى أحد نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل أي ريبة وشك .

- وكان الإمام مالك بن أنس دائم التحذير لأصحابه من علم الكلام وممن يتكلمون في الصفات والذات ، وكان يصف أصحاب الكلام بأهل البدع ، ويقول : إياكم والبدع على اعتبار أن أهل البدع هم الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة وتابعيهم .
- والإمام الشافعي أيضا كان من كبار الفقهاء الذين عارضوا علم الكلام وأصحابه ، وكان مثل أصحابه من الفقهاء الذين كانوا يذمون الكلام وأهله وخاصة ما يخالف الشرع أو أصل من أصول الدين ، وأنكر الشافعي مظاهر الخروج والغلو في الدين ووصف المعتزلة بأهل البدع والزندقة وقال في ذلك : إذا سمعت الرجل يقول الاسم غير المسمى والشيء غير المشيئ فاشهدوا عليه بالزندقة ، وقال أيضا : لا أرد شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية لاستحلالهم الكذب في الشهادة ، فالمسلم لايخرجه ذنبه من الإسلام بل تخرجه مقالة الكفر واعتقاد البدعة أو اعتقاد وجود إله مع الله كقول السبائية في علي رضي الله عنه أنه إله ، وكقول الجناحية أن الله تعالى له روح تحل في بعض بني آدم وتتوارث ، أو إنكار رسالة محمد ﷺ ، أو استباحة المحرمات أو إسقاط الواجبات وإنكار ما جاء به الرسل وهو ما عليه غالبية فرق الشيعة . وهكذا أنكر الشافعي البدع في الدين ولم يحرم الكلام في الدين ، فكان أكثر الفقهاء واقعية وعقلانية وفهما لمهمة علم الكلام وفائدته .
- وكان الإمام ابن تيمية أكثر الفقهاء معارضة لعلم الكلام وزعمائه من المعتزلة والأشعرية ، إذ عاب عليهم الاعتداد بالعقل وإهمال النقل ، على اعتبار أن أدلة العقل لاتفيد اليقين مثل أدلة النقل التي تفيد القطع واليقين ، ووصف علماء الكلام بأنهم من أهل البدع ومما قاله في هذا الشأن : يزعم كثير من القدرية والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن الكريم على حكمة الله وعدله ، وأنه خالق كل شيء وقادر على كل شيء ، ويزعم الجهمية وبعض

الأشعرية وغيرهم أنه لايصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته ، وأنه مستوي على العرش ، ويزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لايصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقا .

- وكان الإمام ابن قتيبة الدينوري أحد الفقهاء الذين هاجموا علم الكلام وأصحابه وذلك بسبب كثرة اختلافهم وتناقض آرائهم واختلافهم في آيات الكتاب والحديث ، ومما قاله في ذلك : تدبرت مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لايعلمون ويفتنون الناس بما يأتون ، ويتهمون غيرهم في النقل ولا يتهمون آراءهم في التأويل ومعاني الكتاب والحديث .
- ثم يأتي الغزالي رغم أشعريته ، فيتخذ موقفا موضوعيا فلا يقف مع الفقهاء ضد المتكلمين ، ولم يقف مع المتكلمين ضد الفقهاء ، وإنما عرض لموقف كل منهما محاولا بيان حقيقة علم الكلام وأقسامه ، وبيان أصول نشأته ودوره في علوم الشريعة وانتشار الإسلام الصحيح ، وفي هذا الإطار يقسم الغزالي طوائف المتكلمين إلى أربع طوائف : الطائفة الأولى : فيها المتعصب الذي يريد ترويج مذهبه فيحرم لذلك تحقيق الحق في مطالبة ، والطائفة الثانية : فيها الذي لم يرزق منطقها القدرة على تحصيل اليقين فيقوده النظر إلى الشك أو التشكيك في قواعد الدين ، فيظهر بعجزه وضعف إيمانه ، والطائفة الثالثة : فيها من هو معوج في الدين ويخطئ طريق اليقين ، والطائفة الرابعة : من يتوغل في الخوض في الحكمة فيقع في ظلمات الفلسفة فربما يعجب بفكره ورأيه والحق من ورائه .

ولاشك أن آراء الغزالي وغيره تبين أن الأشاعرة لم تكن على رأي واحد في إثبات مدى الحاجة لعلم الكلام ، فكان منهم المؤيدين لعلم الكلام وكان منهم المعارضين فإذا دافع الأشعري والغزالي عن علم الكلام وأصحابه نرى الفخر الرازي الذي كان متكلما على طريقة الأشعرية يقول : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ، ورأيت

أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات كما في قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) ، وقوله تعالى : ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ (فاطر:١٠) ، وأقرأ في النفي كما في قوله تعالى : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ (الشورى:١١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ﴾ (طه:١١٠) ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

وفي العصر الحديث عندما تعاظمت الدعوة إلى الإصلاح والتغيير ، وتجديد الخطاب الديني الذي نادى به الإصلاحيون العرب ، ظهر التعارض والخلاف مرة أخرى بين المؤيدين لعلم الكلام والمعارضين له ، هذا على الرغم من الإجماع على أهمية ذلك العلم وفائدته ، عندئذ ظهرت الدعوة لتجديد علم الكلام وفي مقدمتهم الأفغاني ومحمد عبده حين نادوا بعلم كلام جديد مساير للعصر وقضاياه ، وفي نفس الوقت يؤكدون على دور الدين وفهمه الصحيح في إحداث التنوير والنهضة ، ومحاولة الاستفادة من منهجه الذي يجمع بين العقل والنقل ، وإمكان الاستفادة من قضاياه المتعلقة بالاعتقاد والعمل والإرادة والحرية في الفكر والاعتقاد على اعتبار أن ذلك هو الطريق إلى التجديد والتنوير والإصلاح .

ولقد احتج المعارضين لهم بنفس حجج الأقدمين وهي أن علم الكلام له مساوئ وأخطاء عديدة منها : أنه السبب في اختلاف الأمم والمذاهب وضعف أمة الإسلام وافتراقها ، وأن علم الكلام يمثل خطرا حقيقيا لأنه يؤدي إلى عزل علم العقيدة عن ممارسة دوره الفاعل في حياة المسلم وغياب التأثير النفسي والاجتماعي لمبدأ التوحيد الكلامي ، وأننا في العصر الحاضر في غير حاجة لهذا العلم خاصة وأنه كان في القديم السبب الرئيسي في حدوث الشقاق والخلاف بين المسلمين وسبب تعدد المذاهب واختلافها ، وأنه أسهم في تحويل عقيدة الإسلام البسيطة الفاعلة إلى عقيدة فلسفية تنزع نحو التجريد وتتجاوز حدود العقل في بحث قضايا عالم الغيب والآخرة .

وكان عباس محمود العقاد في مقدمة المعارضين لعلم الكلام الجديد ، كما كان على رأس المحذرين من عودة علم الكلام وأخطاره بقوله : إن طرق المتكلمين في البرهنة على العقائد الإسلامية يثير من الشبه أكثر مما تدعو إلى الإقناع ، وأن المشاكل التي فرقت بين الأشاعرة والماتريدية أو بينهم وبين المعتزلة كانت مشاكل في فهم المعاني والألفاظ ورغم ذلك أدت إلى نتائج وخيمة على حضارة الإسلام ، فقد تصدع الصرح وتشتت الفكر ولعب أهل الجدل دورهم في هدم هذا البناء من غير قصد ، ذلك أنهم فرقوا دون أن يعلموا قلوب المسلمين وأباحوا لهم أن ينصرفوا إلى تكفير بعضهم بعضا ، وإلى تقليد شيوخهم وتعطيل عقولهم ، كما سولوا لهم أن يخالفوا الرسول بأن يبحثوا في ذات الله وصفاته بدلا من أن يتفكروا في خلق الله .

وكان الدكتور عبد الحليم محمود أيضا من المعارضين لعودة علم الكلام أو تجديده ورأى أن دخول الفلسفة اليونانية أسهم في مناقشة العديد من قضايا أصول الدين وهو ما أدى بدوره إلى التفرق والشقاق ويقول في كتابه « الإسلام والعقل » مؤكدا ذلك : افترقت الأمة منذ دخول هذه النزعة بعد أن كانت موحدة وانقسمت إلى فرق وطوائف تتضارب وتتعارض وتتصارع وتتناقض ، وإنه لمن ضحك الأقدار أن يقام على هذه النزعة تراث ضخم يسمى علم الكلام الإسلامي أو علم التوحيد الإسلامي وما هو من التوحيد في شيء ، وسبب ذلك عند عبد الحليم محمود سيادة التيار العقلاني الفلسفي ومحاولة علاج مشاكل تتجاوز قدرات العقل البشرى مثل قضايا الذات والصفات والقدر وموضوعات ذات أبعاد سياسية مثل قضية الإمامة ، ومن أجل ذلك يحذر عبد الحليم محمود من الخوض في قضايا الخلاف وضرورة العودة إلى بساطة الإسلام والبعد عن معتقدات علم الكلام .

ونفس الموقف المعارض نراه عند الدكتور محمود قاسم في مقدمته لكتاب ابن رشد « مناهج الأدلة في عقائد الملة » حيث يقول : إنه كان أولى بالمسلمين جميعا متكلمين وغير متكلمين أن يتدبروا آيات الكتاب لكي يستنبطوا منها

أدلتهم بدلا من أن يعمدوا إلى نظريات فلسفية ظنية مثل نظرية الجوهر الفرد . ونفس الموقف المعارض نراه عند الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه «الإسلام وحاجة الإنسانية إليه»، حيث يقول : إن كتب علم الكلام فيها حجب كثيفة تمنع النور وتحدث الظلمة وربما تضمنت على اعتقاد ثابت صحيح . كما ينتقد فهمى جدعان واقع علم الكلام ، وأن هذا العلم واختلاف الفرق والمذاهب كان سببا رئيسيا في انقسام العالم الإسلامي بين مناطق شيعية في إيران واليمن وجنوب العراق ، ومناطق ماتريدية سنية في تركيا وأذربيجان وتركمنستان ، ومناطق سلفية سنية وهابية في معظم شبه الجزيرة العربية ، ويؤكد فهمي جدعان في كتابه «أسس التقدم عند مفكرى الإسلام» على أن علماء الكلام قد شغلوا أنفسهم بقضايا كلامية لاتهم الإنسان في شيء ويقول : إن هذا العلم بنزوعه إلى التجريد القوى واعتماده على الطابع الجدلي العقلي والمنطقي الخالص قد انتهى به الحال إلى أن يكون علما جافا لا حياة فيه ولا تأثير له في حياة الإنسان المسلم ، إذ ما الذي يعنيه أو يفيد الإنسان العصري القول بأن الله وجود محض وأنه واجب الوجود أو أنه عالم بعلم هو عين ذاته أو بعلم ليس هو عين ذاته أو أنه حي ينفي الموت عنه أو عالم بنفي الجهل عنه ، وقد أدى هذا الطابع الجدلي لعلم الكلام إلى تشويه الصورة الخالصة لمبدأ التوحيد ذاته .

ويذهب بعض الباحثين المعاصرين في تراث الإسلام إلى اتخاذ موقف نقدي من علم الكلام يتضمن أهم الإيجابيات وأهم السلبيات ، ومن هؤلاء مالك بن نبي والبشير الإبراهيمي في الجزائر ، فيذهب مالك بن نبي في كتابه : «وجهة العالم الإسلامي» إلى ضرورة ترسيخ مبدأ الحفاظ على العقيدة في صورتها السلفية والتركيز على فاعلية العقيدة في النفس والمجتمع ، وانتقد مالك بن نبي أصحاب الدعوة إلى علم الكلام الجديد متسائلا عن جدوى هذا العلم وفائدته من علاج قضايا التوحيد ومسائل علم الكلام التقليدية وقال : إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي أن نشعره

بوجوده ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة ، وأن ندعم بشكل إيجابي الوظيفة الاجتماعية والخلقية والبنائية للدين في بناء النفس والمجتمع وبناء الإنسان الفاضل وأن نقدم بالفعل قراءة حداثية لقضايا العقيدة قائمة على فهم الدين في بساطته ووضوحه وفاعليته .

ثالثا : فوائد وغايات علم المذاهب والفرق

لقد اهتم علماء الكلام اهتماما كبيرا ببيان فوائد علمهم ، كما بينها الأشعري في العديد من مؤلفاته مثل : « الإبانة عن أصول الديانة »، « واللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع »، « ومقالات الإسلاميين »، وكذا كتابه : « استحسان الخوض في علم الكلام »، وأبو منصور الماتريدي في كتاب : « التوحيد ، وتأويلات أهل السنة »، وأبو الحسين الخياط في كتاب : « الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد »، والقاضي عبد الجبار في كتابه :« المغني » في أبواب التوحيد والعدل ، وفي « شرح الأصول الخمسة »، والآمدي في كتابه : « أبكار الأفكار ، وغاية المرام في علم الكلام » وكتابه : « المبين في شرح معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين »، والغزالي في العديد من مؤلفاته مثل : « فضائح الباطنية »، « والاقتصاد في الاعتقاد »، « وفيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة »، « وقواعد العقائد »، وعبد الكريم الشهرستاني ، في « الملل والنحل »، « ونهاية الإقدام في علم الكلام »، وابن حزم الأندلسي في كتابه : « الفصل في الملل والأهواء والنحل »، وفخر الدين الرازي في أساس « التقديس في علم الكلام »، « وانتقادات فرق المسلمين والمشركين »، والسيد الشريف الجرجاني في كتابه « شرح المواقف في علم الكلام »، وأبي إسحق الشيرازي في كتابه : « الإشارة إلى مذهب أهل الحق »، وأبو المظفر الإسفرائيني في كتابه : « التبصير في الدين »، والملطي في كتابه : « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع »، وابن خلدون في « المقدمة » حيث أوجب هؤلاء ضرورة العلم بأهداف وغايات أصحاب المذاهب والفرق ومعرفة قواعد الحجاج على جميع أحاد الناس .

ولقد اهتم كثير من المفكرين المعاصرين بعلم الكلام وبيان حقيقته وأهدافه ومجال الاستفادة من معارفه وفائدته ، حتى أن بعضهم طالب ببعث علم الكلام وأسموه علم الكلام الجديد الذي يتحاشى أخطاء القدماء ويقدم الفكر الإسلامي القائم على التوحيد الخالص ، وكان في مقدمتهم الإمام محمد عبده في كتابه : « رسالة التوحيد »، « والإسلام دين العلم والمدنية »، والشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه : « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » ، والشيخ محمد أبو زهرة في : « تاريخ المذاهب الإسلامية »، « وتاريخ الجدل »، ومنهم أيضا على سبيل المثال لا الحصرالدكتور إبراهيم بيومي مدكور في كتابه : « الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه »، والدكتور أبو الوفا التفتازاني في كتابه : « علم الكلام وبعض مشكلاته »، والدكتور يحيى هويدي في كتابه ، « دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية »، « وتاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية »، والدكتورة نازلي إسماعيل حسين في : « التمهيد لعلم الكلام عرض وتحليل »، والدكتور محمد عمارة في : « المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية » ، والدكتور علي سامي النشار في كتابه : « نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام »، والدكتور عبد الحليم محمود في كتابه : « الإسلام والعقل »، والدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه : « مذاهب الإسلاميين »، والدكتور عاطف العراقى في : « تجديد في المذاهب الكلامية والفلسفية »، وفي « ثورة العقل في الفلسفة العربية »، والدكتور محمد يوسف موسى في : « الإسلام وحاجة الإنسانية إليه »، والدكتور أحمد محمود صبحي في العديد من مؤلفاته مثل : « في علم الكلام »، « ونظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنى عشرية ، والزيدية ، والأشاعرة »، والدكتور حسن محمود الشافعي في كتابه : « مدخل إلى دراسة علم الكلام »، « ولمحات من الفكر الكلامي »، والدكتور فيصل عون في : « علم الكلام ومدارسه »، والدكتور عبد الراضي محمد عبد المحسن في : « الكلام بين السلفية وأهل الكلام »، والدكتور علي عبد الفتاح المغربي في كتابه : « الفرق الكلامية الإسلامية »، وسعيد فودة في كتابه : « بحوث في علم الكلام »، والدكتور جمال رجب سيد بي في كتابه :

«في علم الكلام منهج وتطبيقه»، والدكتور عامر النجار في العديد من مؤلفاته مثل : «مذاهب الإسلاميين»، و «الأباضية ومدى صلتها بالخوارج»، و«الخوارج عقيدة وفكر وفلسفة»، والذي أكد فيه على أن علم الكلام وخاصة بعد القرن الخامس الهجري صار يعالج قضاياه بمنهج وروح أقرب إلى منهج الفلاسفة وصار يعني بآراء اليونان والفلاسفة المسلمين كما أنه تبنّي جملة من موضوعاتهم الفلسفية ، ومع ذلك ظل محتفظا بطابعه الخاص ومكانته كجزء من الفلسفة الإسلامية ، ومن ثَمَّ استمرت علاقة علم الكلام بالفلسفة الإسلامية بوصفها علاقة جزء بكل والكلام هو الجزء ، وفي كتابه «علم الكلام عرض ونقد»، حدد الدكتور عامر فيه مهمة الكلام وفائدته في تمام المعرفة وكمالها وقال في ذلك : لقد أثبت علماء الكلام أن حاجة الإنسان إلى الإيمان كحاجته إلى الحياة ، وأن حاجة الإنسان إلى الإيمان تفوق حاجته إلى الحياة أو حاجته إلى الماء والهواء ، وكذلك حاجته إلى الفهم والمعرفة والحقيقة ، وأننا إذا أردنا معرفة حقيقة أي مذهب أو فرقة أو جماعة أو اتجاه من مذاهب الإسلام فعلينا بعلم الكلام ، وإذا أردنا معرفة علل الأحكام والشرائع وحقائق الإيمان علينا بعلم الكلام ، وإذا أردنا معرفة المحكم والمتشابه في القرآن والفرق بين الأصل والفرع علينا بعلم الكلام .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : أليست كل هذه الدراسات والبحوث قديما وحديثا دليلا على أهمية علم الكلام وفائدته ؟

وبعد دراستنا لمفهوم علم الكلام عند الفلاسفة والفقهاء وعلماء الكلام وأصحاب الفرق ، وكذلك عرض مباحث علم الكلام وأسباب ظهوره ونشأته يمكن حصر فوائد علم الكلام في :

١- بيان أهمية استخدام العقل في فهم النص وإثبات حقائقه ، وفهم المرام من الأحكام الشرعية وكيفية تطبيقها ، وبيان كيفية أداء هذه الأحكام والعبادات بعد فهمها على الحقيقة ، هذا بالإضافة إلى تعدد التأويلات وتنوعها بما يفيد الاستدلال وتقوية الإيمان . وفي هذا المعنى يقول ابن خلدون في

مقدمته : إن فائدة علم الكلام في آحاد الناس وطلبة العلم معتبرة ، إذ لايحسن بحامل السُّنة الجهل بالحجاج الفطرية على عقائدها .

٢- انتشار الإسلام الصحيح ومبادئه في ربوع المعمورة ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة والرد على دعاوى المبطلين ، وفي هذا المعنى كان عثمان الدارمي ت ٢٨٠ هـ يقول : إن غاية علم الكلام التصدى لدعاوى الضالين وأصحاب البدع المبطلين ، فبعد أن ظهرت البدع من أهلها وجب على العلماء التصدي لهم بالتكذيب والتكفير منافحة عن الله كي لا يسب ولا تعطل صفاته ، وذبا عن ضعفاء الناس كي لا يضلوا بمحنتهم هذه من غير أن يعرفوا ضدها من الحجج التي تبطل دعواهم وتبطل حججهم .

٣- استخدام الحكمة والموعظة الحسنة في الرد على المخالفين والمعارضين ، لأن ذلك العلم قد كشف عن الآراء المخالفة للدين التي قدمها الغلاة في كل فرقة وأصحاب المعتقدات الخاطئة .

٤- إن غاية علم الكلام كما يقول الإيجي في المواقف تحقيق الرقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان أي اليقين مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ** ﴾ ، وأن ذلك يتطلب من علماء الكلام كما يقول الخوارزمي أن يردوا على المعطلة الذين نفوا الصفات كالواحدية والقدرة والحياة عن الله ويردوا كذلك على الثنوية من المجوس والزنادقة الذين أنكروا وجود الإله .

٥- إن فائدة ذلك العلم تحقيق الإيمان الصحيح ، لأنه كشف عن شمول العقيدة والإيمان لجوانب الحياة الإنسانية ومدى فائدة الإيمان للإنسان ، كما كشف عن حقيقة العقل ودوره وحقيقة قدرته وضعفه عن إدراك مجالات فوق قدرته وخاصة عالم الغيب ، ولذا كان هذا العلم من أهم وسائل الدفاع عن الدين وإزالة الشكوك ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة ، وأنه الطريق لإثبات النبوات والمعجزات ، وكذلك إثبات الحقائق التي وردت في القرآن عن مسائل الخلق والبعث والذات والصفات والجنة والنار والحساب .

٦- أثبت ذلك العلم حقيقة وضرورة الجمع بين العقل والنقل ، كما كشف عن مدى تميزالعلوم العربية والإسلامية عن باقي العلوم المدنية والفلسفية التي كانت عند اليونان وغيرهم .

٧- كشف علم الكلام عن حقيقة دور اليهود والنصارى في إثارتهم للفتن وعدائهم للإسلام ، والتعرف على أساليبهم .

٨- أثبت علم الكلام أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للدين الإسلامي ومنه استقى المسلمون معارفهم وعليه قامت علومهم من فقه وعقيدة وأخلاق ، وتفسير ومختلف علوم القرآن والحديث ، كما أثبت القواعد والأدلة وموضوعات البحث التي يدور عليها مبحث علم الكلام وهي قضية التوحيد ، وإثبات أن القرآن به العديد من أدلة التوحيد واستحالة تعدد الآلهة .

٩- ساعد علم الكلام بعض الفرق على إخضاع السياسة للدين أو إخضاع الدين للسياسة وخاصة عند فرقتي الشيعة والخوارج ومذهبهم في الإمامة فجعلهم يفهمون العقيدة فهما خاصًّا ويؤولونها تأويلاً خاصا ليتفق مع آرائهم واتجاهاتهم وأغراضهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ (الأنبياء:٢٢) ، وقوله أيضاً : ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ** ﴾

(الإخلاص:١-٤)

١٠- ساهم هذا العلم في بيان أسباب تعدد الفرق والمذاهب وانتشار روح العصبية والتعصب لآراء السابقين والاعتقاد الخاطئ في صحة آرائهم وحيث كان التعصب الشديد كان الاختلاف الشديد ، وهذه أيضاً من سلبيات ذلك العلم .

١١- ظهور عدد من الفلاسفة والشكاك والمعتزلة الذين نهجوا مناهج الفلاسفة في الاعتماد على العقل ومعارف الحس وحاولوا تطبيق ذلك في مجال

اثبات العقائد الإسلامية باعتمادهم على مجموعة من الأقيسة المنطقية والتعليلات الفلسفية والدراسات العقلية المجردة .

١٢- بيان حقيقة الخلاف بين المذاهب والفرق : فقد أثبت علم الكلام أن الاختلاف بين الفرق وتعدد الآراء والاجتهادات وتباين المواقف كان أمراً طبيعيًّا ومطلوباً لتتسع دائرة الفهم وتنتشر الآراء في مختلف البلدان فيستحسن كل فريق ما يناسبه وفي كل خير ، كما أثبت أن هذه الاختلافات لم تتطرق إلى أصول الدين إذ لم ينكر أحد المذاهب ولم تنكر فرقة من الفرق نصًّا قرآنيًّا أو حديثاً نبويًّا صحيحاً ، ولم تختلف هذه الفرق في الوحدانية والإقرار بالشهادة وصدق النبي ﷺ ، وصدق ما جاء به وأنه المعجزة الكبرى ، ولم يختلفوا كذلك في أصول القرآن وقواعده كالصلوات الخمس والزكاة والحج والصوم ولا في أداء هذه التكليفات ، فلم يكن الاختلاف في ركن من أركان الإسلام أو في أمر علم من علوم الدين بالضرورة كتحريم الخمر أو أكل لحم الخنزير ، أو أكل الميتة ، أوالاختلاف في القواعد العامة للميراث ، وإنما الاختلاف كان في الأمور التي لا تمس الأركان ولا الأصول العامة .

١٣- أثبت هذا العلم قيمة تقدير الدليل والبرهان : فقد تعلم المسلمون من علم الكلام أدب المناقشة والجدل وكيفية احترام آراء الخصوم والتحلى بأخلاق العلماء وكيفية الإقناع ووسائل القياس ، إلى جانب الموضوعية والميل إلى التفهيم والتفسير ، وذلك بإقامة الأدلة الواضحة على صحة وصدق العقائد الإيمانية . ومما يدل على أدبهم في المناقشة والجدل واحترام رأي الغير اعتقادهم وتطبيقهم لمبادئهم في الجدل وهو : إن رأينا صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب وهذا هو أساس الجدل عندهم . بالإضافة إلى المبدأ القرآني في الجدل مع أهل الكتاب أو المخالفين ، استرشاداً بقوله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ

﴿ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (النحل:١٢٥)، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ (العنكبوت:٤٦) .

١٤- أثبت هذا العلم أهمية فهم التاريخ الإسلامي في أصالته ، واستلهام حقائقه ومبادئه في مستقبلنا ، وفهم حقيقته بعيداً عن آراء أهل الاستشراق والاستغراب وأمثالهم .

١٥- ساهم هذا العلم عمليا في تحقيق النمو الخلقي والروحي بوصفه الأساس لبناء مجتمعاتنا ، وتحقق وحدتها بعد الاستغناء عن النظريات والآراء الفاسدة أو الغير مؤكدة ، فأثبت للجميع أن الدين واحد والله واحد والكون واحد والإنسان واحد . وذلك عن طريق الدفاع عن العقائد الصحيحه ، وتصحيح الاعتقادات الزائفة وكشف الآراء المخالفة للدين التي قدمها المنحرفين والغلاة في كل فرقة ، والاعتماد على مختلف الأدلة العقلية والنقلية وكافة الحجج المنطقية ، وإزالة كل شبهة عن الدين وإنارة العقول والقلوب بنور الإيمان واليقين ، لذا فإن إثبات صحة العقيدة وسلامتها بالأدلة المقنعة هو الهدف الأسمى لذلك العلم وغايته .

* * *